انتقام الأبله
و
حكاية سمكة الصياد

حجاج أدّول

دار الشروق

انتقام الأبله
و
حكاية سمكة الصياد

انتقام الأبله
وحكاية سمكة الصياد

حجاج أدول

الطبعة الأولى ٢٠١٨

تصنيف الكتاب: أدب / قصص

© دار الشروق

٧ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
www.shorouk.com
dar@shorouk.com

رقم الإيداع ٢٦٣٢٨/ ٢٠١٧
ISBN 978-977-09-3446-3

الغلاف : رجائى عبد الله

حجاج أدّول

انتقام الأبله
و
حكاية سمكة الصياد

دار الشروق

المحتويات

انتقام الأبله

القرية قبل العاصفة ١١
القرية في مهب العاصفة..... ٣٠
الحادثة التي جَرَتْ..... ٤١
الآلهة تحتضن سومو البريء..... ٥٦

حكاية سمكة الصياد والعفريت المراهق

فرشة ضرورية لبيان الحال..... ٧٩
على شاطئ البحر أصيد قمقم العفريت شوشو..... ٨٤
عودة العفريت شوشو..... ١٠٣
مملكة البرقوق الذهبي وزواجي من الأميرة برقوقة ١١٥

إهداء

أيها الإنسان السامي.. أيها الشاعر الرائع.. أيها المفكر الهادئ..
أيها الصديق الطيب.
يا من فارقتنا وقد أثريت حياتنا فنّا وفكرًا.
الإهداء لك..

يا.. سيد حجاب.

انتقام الأبله

القرية قبل العاصفة

القرية على هضبة مرتفعة، تحت خط الاستواء. الأمطار الغزيرة خاصة الموسمية، تنهال على بيوتها الحجرية البسيطة، فتنزلق من أسقفها المنحدرة لتتشربها الأرض الرملية. البيوت متناثرة متباعدة عن بعضها في شبه دائرة، وتتخلل البيوت أشجار ضخمة، ومنها أشجار الفاكهة، خاصة الموز والمانجو.

خلف القرية حيث شروق الشمس، مرتفع رملي عريض يصل لقمة من قمم الجبال، كانت تحتلها الغابات المليئة بالأسود والنمور والأفيال وغيرها. وبعد معارك ضارية من أزمان بعيدة، اشترك فيها أهل القرية وعدد من القرى الأخرى، تم دحر تلك الوحوش الخطيرة لبعيد، واقتلاع مساحات من الأشجار والأحراش، حتى لا تعود الوحوش وتقترب من القرى. وصار المرتفع آمنًا، وطريقًا يتلاقى من خلاله أهالي القرى القريبة.

أمام القرية، حقول البن في مصاطب شاسعة استصلحوها في منحدر، المصاطب منها الطولية والمستطيلة حسب تضاريس الهضبة. البن هو المحصول الرئيسي للقرية. أشجار البن خضراء على الدوام فيصير منحدر الهضبة ناضر الخضرة. وعلى جوانب أشجار البن، مساحات متوسطة يزرعون فيها خضراواتهم الطازجة. المصاطب انحدارها بسيط في البدايات، لكنها منزلق خطير في النهايات، ونهايتها وادٍ صخري، وعلى يسارها جدار جبلي أملس، غير قابل للصعود،

به نتوءات بنت عليها النسور أعشاشها. أسفل هذا الجدار، حفر الأسلاف المعبد الصغير، حجرة ضيقة بها تماثيل صغيرة ونقوش لآلهتهم، وتمثالان أكبر من غيرهما: تمثال إله الرضاء والبركات، وأمامه خيرات الحصاد من حبوب البن والفاكهة المتنوعة. وتمثال إله الغضب والانتقام وأمامه ثعابين كوبرا أربعة، ونقوش لحيوانات معروفة، لكن أحجامها مهولة، خاصة الفيل القديم المرعب. وأسطر مقدسة من كتابة قديمة نُقِشَتْ على الجدران. الكاهن العجوز يقوم برعاية المعبد وإقامة الطقوس، بمساعدة صبي. الصبي يخدم الكاهن العجوز ويتلقى منه المعرفة، ليتولى أمور المعبد من بعده. أكثر زوار المعبد وأكثرهم خشوعًا، هو الطفل الصغير «سومو»، الذي يتسلل من بيته ويأتي لينام في المعبد. والده وجدَّته وأخوه، يبحثون عنه بدون طائل، وفي الصباح الباكر، يجده الكاهن نائمًا أمام تماثيل الآلهة. بعد ذلك عائلته عرفت مكان اختفائه، فقط يذهب أحدهم ليعيده إلى البيت. «سومو» حين تخطى الخامسة من العمر، تأكد ناس القرية أنه أبله. كبر الطفل وصار ضخم الجسم وبقي طفولي التفكير. يأتي للمعبد، تشده تماثيل ونقوش الكتابات الغامضة، ويراقب إله الرضاء والبركات، وإله الغضب والانتقام وأمامه الثعابين الأربعة تنظر للناس وهي على استعداد للنهش. يتعجب من رسومات تلك الوحوش القديمة رهيبة الحجم. يسأل الكاهن كثيرًا، ويحاول الكاهن تبسيط بعض المعلومات الخفيفة. الأبله يتقبل الشرح جاحظ العينين فاغر الفم خاشعًا. وفي يوم سأل الأبله في بساطة:

- منصة انتحار الأضاحي.. صحيح؟

فوجئ الكاهن بالسؤال. كيف يعرف هذا الأبله بالمنصة الرخامية؟! المنصة التي يتقدم إليها الشاب المختار راضيًا وهو في

كامل زينته، لتقديم نفسه كضحية للآلهة، يقف عليها عاريًا وظلام الليل يحتويه، وخلفه الكهنة القدامى يتلون تراتيلهم المقدسة، بمصاحبة ضربات الطبول. مع أول شعاع للشمس. يتوقف الكهنة عن التراتيل، فتتوقف الطبول، فيقذف الشاب الضحية بنفسه في الهاوية السحيقة، ليسقط في حوض العظام ميتًا، ثم تهبط النسور لتأكل لحمه. لم يُجب الكاهن على سؤال الأبله ضخم الجسم. ابتسم له في حرج وتكلم عن الأسلاف، وأن بعض ما كان قد انتهى زمنه، ولا داعي للحديث عنه.

بعد المعبد منطقة أشجار كثيفة وأحراش ليس منها خطورة، لذلك هي من بعد الغروب ملتقى المحبين من المراهقين، أما بعد منتصف الليالي، فيتسلل إليه العشاق من الرجال والنساء الناضجين. أمام المعبد ساحة رملية، تقام فيها احتفالات الحصاد والاحتفالات الدينية وحفلات الزفاف.

ناس القرية والقرى المجاورة، ما زالوا على الفطرة. آلهتهم يسكنون كهوف الجبل الذي يعلو على يمين القرية. الصعود له صعب وخطير، فلا يصعده كبار السن والضعفاء والمرضى، وحتى الشباب من ذوي القلوب الضعيفة. فالممر الصاعد ضيق متعرج كثير المنحنيات، في جوانب منه يشرف على هاوية خطيرة، السقوط فيها هو الموت المحتوم. في قمة الجبل كهوف الآلهة متباعدة، منها الواسع ومنها الضيق، وكلها عميقة موغلة في باطن الجبل حيث تتصل ببعضها، يضيع من يدخلها ولا يعرف أسرارها، يتوه في جنباتها وممراتها المعتمة، حيث رسومات آلهة العقاب، فيكون مصيره السقوط في بئر من الآبار وينتهي أجله، أو يموت رعبًا من صدى أصوات الأشباح التي لم يرها أحد. اثنان يعرفان كل

تفاصيل ومنحنيات وطرق تلك الكهوف الغامضة: الكاهن العجوز وتابعه الصبي.

«تيماتي» فتاة شابة، لجمالها الواضح، صار اسمها تيماتي الجميلة. قلب تيماتي وجسدها، مالا للفتى الوسيم الرشيق «آبيسو» ابن الحداد. لم يهمها كونه فقيرًا مثلها، فضّلته على الشباب من أبناء العائلات الغنية. تيماتي الجميلة وآبيسو الوسيم، موعد زواجهما موسم حصاد البن بعد القادم. فالموسم القادم مخصص لزواج الجيل الذي يسبقهما. تيماتي الجميلة وآبيسو الوسيم، بدمائهما الساخنة وفورة جسديهما، لا يستطيعان الانتظار لموسمين للحصاد، حيث ستكون ليلة زواجهما، ولم يكتفيا بالطبع بالتلاقي تحت أنظار العائلة وعموم الناس، فدبرا التلاقي الخفي الحُر بين الأشجار الكثيفة والأحراش التي تلي المعبد، يختطفان بعض الأحضان والقُبلات.

حين تبدأ احتفالات الحصاد. لا فتاة من جيل تيماتي وآبيسو، تظن أنها ستنافس تيماتي في الجمال، حيث ستتفق الجموع الحاضرة على الفتاة الأجمل. ولا فتى يظن أنه سينافس آبيسو في الوسامة والرشاقة، فيما عدا «كمالو» ابن عمدة القرية، المدلل المغرور، المُصر على منافسة آبيسو واقتناص تيماتي الجميلة منه.

السَّمار الخفيف لون الجميع، والعيون كلها ما بين الأسود والبني. القوام الممشوق رجالا ونساءً. اللاتي صِرن سمينات قليلا، هن من العائلات الغنية، واللاتي في غنى عن عمل نسائها، مثل بنات العمدة وبنات تاجر البن الوحيد في القرية، لا يعملن لا في الحقل ولا في البيت، حيث الخادمات يقمن بالعمل بدلا منهن؛ لذا فأجسادهن تمتلئ قليلا ويفخرن بذلك.

ولأن المناخ طوال العام حار رطب، فملبس أهالي القرية، مئزر من قطعة قماش ملونة، تلف حول وسط الرجال والنساء، وتتدلى حتى الرسغين، وقميص ملون بسيط على الجذع العلوي للرجال والنساء. عمل ناس القرية الأساسي في زراعة البن. القهوة هي المكان الذي يجتمع فيه ناس القرية، ويشربون ويأكلون ويتسامرون ويلعبون النرد. دكاكين القرية ثلاثة: دكان البقال، ثم قهوة مفتوحة الأجناب ذات سقف خشبي، ومقاعد ودكك خشبية، ثم دكان الحداد. الحداد لا يعتبر غنيًّا مثل صاحبَي دكان البقال والمقهى، فعمله قليل ولا يُدر له دخلًا يريحه ويريح عائلته. والدكان الأوسع لبائع البن، وخلف الدكان مخزن واسع مليء بأجولة البن، وحظيرة تحتوي على عدد كبير من الحمير، فهي وسيلة نقل البن لمخزنه، ومن مخزنه للمدينة البعيدة، حيث تاجر البن الأكبر في المنطقة كلها.

وأتى موسم حصاد البن.. أتى بعد شهور من مشقة العمل المستمر، طوال أيام وليالٍ. ناس القرية كلهم يعملون بعزم وحزم في الحصاد. يحمل كل منهم سلة خوصية، يقطف ثمرات البن ويلقيها في السلة حتى تمتلئ، فيصعد ليفرغها في مساحات مفروش فيها الحُصر العريضة. الصعود والهبوط في مدرجات منحوتة ملتوية.. يعملون والكل مبتسم مغتبط. سومو يعمل معهم لعبًا. يساعد هذا وهذه ولا يبقى في حقل واحد أكثر من ساعة. حتى حقل عائلته لا يبقى فيه كثيرًا مهما ترجَّته جدته «رهيسة». شابان أخوان، حقلهما ضيق، يقومان بالعمل في حقل عائلة سومو مقابل أجر. ثم أيام لتجفيف الحبوب ثم تحميص جانب منها، والأغلب كما هو سيشتريها منهم تاجر البن. ثم ينتهي العمل تمامًا.

البهجة عامة، فالخير أتاهم ببركة الآلهة. وستنطلق نفوسهم

وأجسادهم لمدة ثلاثة أيام، في عفوية وعنفوان في الساحة المخصصة أمام المعبد. سينطلقون يغنون ويرقصون، ويتناولون الطعام ويشربون الخمر معًا. وقبل الأيام الثلاثة المترعة بالفرح، تكون ليلة الجريوت.. ليلة حكَّاءة القرى، التي ستحكي تاريخ القرى وأمجاد الأسلاف. يتوافد الضيوف من القرى المحيطة، آتين من ناحية المرتفع الرملي خلف القرية. على أقدامهم وعلى حميرهم. معهم أضحيتهم وفاكهتهم وطعامهم وشرابهم. مثلهم مثل أهل القرية التي تستقبلهم فرحين بهم هاشين باشين لهم. فهذه القرية هي القرية الأساس، لتواجد المعبد الصغير بها، ولمجاورتها لجبل الآلهة الحاوي للكهوف المقدسة.

الكل يرتدي الملبس الوقور، وتحتشم النساء والفتيات ويغطين شعرهن بقطع قماش رمادية، ويغلقن قمصانهن بإحكام فلا تظهر مقدمات أثدائهن، وحين يجلسن في مكانهن على الرمال للاستماع، يجلسن بهدوء وحرص، فلا تظهر أي مساحة مهما كانت ضئيلة من أفخاذهن. الرجال على جانب والأطفال خلف الجميع، فيما عدا الرضع فمع أمهاتهم، والكل ترك مساحة كافية بينهم وبين المعبد، حيث ستتحرك الجريوت فيها باندفاعاتها.

تأتي المرأة الجريوت عادية الملبس وخلفها فتاة صغيرة، تحمل لها ملبسها الخاص. الفتاة الصغيرة هي جريوت المستقبل، تتعلم من الجريوت العجوز. تدخل الجريوت مع الفتاة في المعبد، حيث ينتظرهما الكاهن العجوز. فترة همهمات تصدر من الثلاثة، وذكر أسماء الآلهة وسط سُحُب من البخور كثيفة، حتى إنها تنفذ من الباب الوحيد للمعبد، لتطير متباطئة وتغطي كل الحاضرين المنتظرين، بأريج طيب. تبدأ طبول ودفوف هادئة لتخرج الجريوت بكامل زيها وزينتها. في يمينها حربة لامعة، ريش متنوع على شعرها المدهون بكثافة،

وجهها مدهون بالأحمر والأزرق، جسدها كله مصبوغ بنقوش المعبد، شخاليل مربوطة في ذراعيها ووسطها وأعلى رسغي قدميها. تخرج للناس فيصيحون مهللين محنيي الرءوس لأسفل، ثم يعتدلون ليتابعوا الجريوت التي لم تعد عجوزًا، بل هي رمز من رموز الآلهة المقدسة، هي صوت الأسلاف العظماء. فتاتها الصغيرة تقف في الخلف تتابع مُعلمتها، وفي مواقف معينة تردد ما تقوله الجريوت، وأحيانا تؤدي بعض الحركات التي تشخص ما تقوله الجريوت. ومع دقات الطبول المتنوعة ارتفاعًا وانخفاضًا، تبدأ الجريوت في حكي حكاية الأسلاف الرئيسية، والتي يسمعها الناس كل موسم، ولا يملّون من سماعها، ومن يسمعها لأول مرة، تكاد أنفاسه تتوقف، انبهارًا وخشية وحماسًا حسب مجريات الحكاية. الجريوت تندفع هنا وهناك، وتصيح وترفق وتتشدد وتثب في الهواء ثم تقعي وتزحف وتتوسل، لتقوم منطلقة هائجة ثائرة لاعنة. تحارب برمحها وتبخ نارًا غير مرئية من فمها، فتحرق الأعداء وترعب الوحوش. الجريوت صارت بقوة ماردًا لا يكل ولا يتعب. والعرق الذي ينسال منها، عرق العافية والفتوة لا عرق التعب والإجهاد. يسمع أهالي القرى كيف أن أسلافهم الهائلين، بعد أن ظهر فيهم البطل الخارق «تاموس»، تحدوا إلهًا شريرًا وتغلبوا عليه، إلهًا خرج من مجموعة الآلهة الطيبة. فما كان من آلهة الخير، إلا أن أحبت البطل، وقررت معاونته بالأفكار والخطط، وأمدته بقوى خارقة، ليستطيع مجابهة إله الشر المارق، الذي حرض وحوش الغابة القريبة لتهاجم قرية البطل تاموس وبقية القرى القريبة. الآلهة دهنت تاموس بصبغة مقدسة، فقوي جسده ولم يتحطم حين هاجمه فيل وطعنه بناب من نابيه، فانكسر ناب الفيل من قوة ضلوع البطل تاموس. ولم تكن الوحوش وقتها مثل وحوش هذه الأيام.. لا.. فالفيل القديم أضخم

ثلاث مرات من فيل هذه الأيام. ونا‌باه مهولان. والخرتيت القديم أضخم ثلاث مرات من خرتيت هذه الأيام.. وهكذا كانت الأسود والنمور والذئاب والضباع. تجمعت الوحوش من أفيال وخراتيت وأسود ونمور وضباع، انضمت لبعضها تزأر متوعدة بقتل كل البشر. وفي وقت واحد تلك الوحوش المهولة، هاجمت الناس وصارت تقتل فيهم قتلًا، الأفيال تدهسهم وتطعنهم بأنيابها، والخراتيت برءوسها الضخمة وقرنها المرعب، تضرب الفارّين أمامها، وبقية الوحوش تعض بأنيابها وتضرب بمخالبها، فكانت مجزرة دموية على القرى المسكينة. الأفيال والخراتيت تهجم على البيت من بيوت القرية، فتقتحمه بجرمها الهائل ليتهاوى البيت وكأنه من ورق، ويخرج الفيل أو الخرتيت من الجانب الآخر. هُدمت البيوت وخُرّبت المزارع المنحدرة، وانزلقت بعض الوحوش فسقطت في أسفل الهضبة ميتة، وحتى الآن عظامها في سفح الهضبة، تبين مدى ضخامتها غير المعقولة. بقية الوحوش لم تتوقف عن الشر، استمرت في القتل والهدم، حتى تصدى لها البطل تاموس، وانضم له ليس فقط رجال القرى، بل والنساء أيضًا، فالمعركة إما البقاء وإما الإبادة. ببسالة حاربوا برماحهم وسيوفهم ونبالهم. تاموس يحمل رمحًا أطول من بقية الرماح بثلاثة أضعاف. ترك من معه يقاتلون الأسود والنمور وغيرهما، وتصدى هو وحده للأفيال والخراتيت المرعبة. ناب الفيل أطول من البطل تاموس، وقرن الخرتيت يكاد يبلغ طوله. يناورهم ويتفادى أنيابها وقرونها، ويطعن الأفيال خلف آذانها الشاسعة، وفي بطنها، وخلف رقبة الخرتيت. يخرون أرضًا واحدًا بعد الآخر، حتى دب الرعب في قلوبها هي وبقية الوحوش الغادرة. نجح تاموس وناس القرية في صد الوحوش الفتّاكة السفاحة، وأجبروها للتراجع داخل الغابة، ثم طاردوها في الغابة نفسها.

بعد أن هزموا الوحوش الهائلة، قرر البطل تاموس أن يحرق جانبًا من الغابة القريب من القرى. حتى يأمنوا عودة تلك الوحوش لمهاجمة الناس وبيوتهم وزراعاتهم. ومن يومها والقرى تنعم بالأمان.

تُنهي الجريوت حكاياتها فتدخل المعبد الصغير وخلفها فتاتها. الجريوت تسقط أرضًا من الإعياء، يأتيها الكاهن وصبيه اليافع، يساعدانها على الإفاقة. يعطيانها جرعات مياه وحبّة مانجو مستوية. تشرب وتأكل وتتنفس بعمق. يساعدانها في خلع ملابس الحكي المقدس، ويحممانها ويضعان عليها ملابسها العادية. ثم يتركانها لتنام ساعة زمن.

أهالي القرية والقرى الضيوف، يبقون ليتسامروا ويعيدوا بعض مقاطع سيرة الأسلاف العظماء، وبطلهم الأسطوري تاموس. ثم يتناولون عشاءهم، وينام الجميع منتشين مستعدين لروعة الأيام الثلاثة القادمة.

اليوم التالي.. بعد الفجر، الطبول ذات الأحجام تدوي. والمزامير ذات الأطوال تُزَمّر. وآلات الأوتار المتنوعة تشدو. يتجمعون مرتدين أحلى ملابسهم المزركشة. حلقوا ذقونهم وشواربهم. تزينوا كما لا يتزينون طوال العام. خاصة النساء، شعرهن ضفائر لامعة. والشباب مثلهن، وإن كانت ضفائر النساء أغزر وأطول. قمصان الفتيات اليانعات مفتوحة، لتظهر بدايات نهودهن المتماسكة. الأجساد تشربت من الزيوت الطيبة. الكحل في العيون. يسيرون في حركات راقصة وتراتيل تقليدية تمجد الآلهة، وتشكرها على رزق المحصول.

بدأ ذبح الضأن والماعز كأضاحي للآلهة. ثم تجمع ناس القرى كلهم، أمام المعبد الصغير. كبارا وصغارًا، نساءً ورجالًا. حاملين

أعواد البخور التي يتصاعد منها دخان طيب الرائحة. والبعض يحمل أطباقًا خوصية، عليها حمولة من الفاكهة، وأطباقًا تحوي لحوم الأضاحي التي ذبحوها، وفي مقدمتها طبق خوصي واسع، ممتلئ بحبوب البن الطازجة، يحمله أقوى رجل في القرى. يرتلون تراتيلهم خلف الكاهن العجوز، ومزامير خاشعة ترافق تراتيلهم. بارك الكاهن العجوز البن الطازج، والأضحية من فاكهة ولحوم. وتقدمهم الكاهن ناحية ممر الصعود إلى كهوف الأسلاف. بعض العجائز على ظهر الحمير يتابعون الحشد. الأطفال في الخلف يشاركون بفرحة مضاعفة. بين الأطفال شاب مارد الجسد، نصفه العلوي عارٍ مثل بقية الأطفال. المارد يضحك مثلهم ويتصرف ويتقافز مثلهم. وبين لهم غضبه حين نسوا الاحتفال وصاحوا به:

- سومو الأبله. سومو الأبله.

غضب من الأطفال فصاح فيهم بصوته القوي غاضبًا من سبابهم، ثم هرب منهم واندس بين الكبار.

عند بداية الممر الضيق الخطير، تخلف الكاهن العجوز، وتخلفت الجريوت العجوز، كما تخلف كل كبار السن والمرضى، والأطفال منعوهم رغم محاولة عدد منهم التسلل بين الكبار. وامتنع كل رجل لا يتحمل قلبه خطورة الصعود، خاصة مع كل هذا الزحام، الذي يزيد من احتمالات السقوط. من تخلفوا أعطوا الصاعدين ما معهم من أضاحي. وكان من ضمن المتخلفين الشاب «سلفاي» الأعرج.

الصبي مساعد الكاهن يتقدم الصاعدين إلى كهوف الآلهة. خلفه الرجل القوي حامل السلة الكبرى، وعليها حبوب البن الطازجة، ثم الباقون وبينهم المارد الأبله سومو. سومو عارٍ إلا من مئزر يغطي

عورته، فلم يستطع أحد إقناعه بأن يرتدي في هذه المناسبة قميصًا وقورًا مثل غيره من الشباب.

وصلوا للقمة في سلام. توجهوا للكهف الكبير. دخلوا في أعماقه، لكن لم يتعمقوا ويقتربوا من ممراته الداخلية الخطيرة. سومو الوحيد الذي تعمق في الكهف. أتى كثيرًا للكهوف المقدسة وهو صبي. وعرف الكثير من أسرارها، فترة وعاد سومو لينضم لبقية ناسه. تماثيل ورسومات الآلهة. وبخاصة الكبيران فيهما.. إله الرضاء والبركات، هذا المبتسم الراضي، وأمامه خيرات حصاد البن والفواكه. وتوأمه إله الغضب والانتقام، وأمامه الثعابين الأربعة ظهرها له وأعناقها المنتفخة ورءوسها المفتوحة الأفواه والأنياب ظاهرة في اتجاه الناس. العديد من الآلهة الأخرى، وبعضها على هيئة رجال ونساء عمالقة، أياديهم على هيئة خراطيم وأنياب أفيال. منهم مَن في أعلى رءوسهم قرون خراتيت. رسوم للكهنة القدامى وهم يتحركون ممسكين بمباخرهم ويرتلون الأدعية، وأمامهم شاب عارٍ يقف على منصة تطل على هاوية.

ناس القرية، وضعوا سلال الفاكهة واللحوم والبن الطازج أمام تماثيل الآلهة. ركعوا ودعوا للآلهة وبدءوا بإله الغضب والانتقام، دعاء الخوف، وأن يرفع عنهم غضبه. ثم إله الرضاء والبركات، أن يبارك في الحصاد وفي أجيالهم الصاعدة، وأن يستمر الأمان الذي يعيشونه. ينظرون لرسومات الوحوش الهائلة، فيدعون الآلهة أن تُبعد عنهم الوحوش المفترسة. ثم يعودون لإله الرضاء والبركات، كل منهم يدعو دعاءً خاصًا به. «سلاسو» الذي يوم زفافه اقترب، الخوف واضح على ملامحه، يدعو الآلهة أن تراعيه ويتم له حفل زواجه على خير. يدعو الله أن يهدئ أخاه الأكبر سومو. فهذا الأبله لم يفهم لماذا تزوج من هم

في عمره الموسم الماضي، وهو لم يتزوج في عامهم، ولن يتزوج أيضًا هذا العام! سلاسو هو الذي يحلق ذقن وشارب أخيه سومو في المواسم وغير المواسم. سومو كان راكعًا خاشعًا للآلهة، يدعو بصوت خفيض أن يتزوج هذا العام من تيماتي الجميلة. القريبون منه سمعوا همهماته، والتقطوا اسم تيماتي، فلم يستطيعوا كبت ابتساماتهم الساخرة.

عادوا هابطين بتراتيل مختلفة وتصفيق بالأكف في متواليات يحفظونها. ناس القرى القريبة، رحلوا إلى قراهم. أهل القرية كلٌّ ذهب لبيته يستعد لبداية الليلة الأولى في احتفالات الحصاد.

قبل الغروب تجمعوا في الساحة الرملية أمام معبدهم الصغير. الكل يلقي التحية على الكل. الوجوه مبتسمة في فرحة جماعية. سلاسو يتابع أخاه سومو، ومتابعة سومو لا تحتاج لمجهود، فهو الأطول والأضخم في الشباب، وهو الذي لا يبقى في مكان، يسرع بين الجميع ويلقي لهذا كلمة، وقبل أن يتلقى الإجابة، يذهب لغيره. يميل للتواجد بين الفتيات، خاصة تيماتي الجميلة، التي خصها بكلمات المعايدة المعتادة، ثم وهو يركز عينيه في عينيها، سألها أن تتزوجه. الفتيات يبتعدن عنه، أو بمزاح يدفعنه بعيدًا، وهو يضحك في فرحة الأطفال، فهو طفل وإن كان ضخم الجسم هائل القوة.

خلال فيضانات الرقصات وأغنيات احتفالات الأيام الثلاثة، سيعلم من لا يعلم بقصص الحب بين الفتية والفتيات، رغم أن أغلبها معلوم من شهور. بوح الحب هنا بالرقص والغناء والإيماءات، وهذا البوح الطقسي أصدق وأعمق وأحلى من البوح بالكلمات. في تلك الاحتفالات سيتم الاختيار التلقائي، لأجمل البنات اليانعات، وأكثرهن إتقانًا للرقص والغناء. ولأكثر الفتيان وسامة ورشاقة،

وأقدرهم في الرقص والغناء، وأداء رقصة الحرب. يتم هذا قبل غروب اليوم الثالث، يتم بالرقص الجماعي الذي يلتف حول الفتاة والفتى الأجمل. وغالبًا ما يكونان معا زوجًا وزوجة ما بعد احتفالات الحصاد التالية.

اتخذ الجميع صفوف الرقص مع تصاعد دوي الطبول والدفوف. الرجال في جانب وفاصل رملي ثم جانب النساء. يصفق الجميع مع اهتزاز أجسادهم ببطء. سخنت الأجساد فازدادت سرعة الرقصات وضربات الطبول. رقصات الرجال والنساء كل منهما في مكانه، ورقصات يتداخلون فيها، ورقصات شبابية فيها يتحول الكبار لدائرة كبيرة، تاركين فرصة للشباب الصاعد، أن يُبدعوا في رقصاتهم السريعة، وخلالها يتضح انسجام فتى وفتاة.. ابتساماتهما لبعضهما البعض، وفرحتهما ببعضهما البعض، وتعمدهما الرقص معًا وسط رقص المجاميع.

في هذا العام الشاب الأسطع هو آبيسو ابن الحداد، البالغ من العمر خمسة عشر عامًا. والفتاة الأجمل هي تيماتي الجميلة، التي ستصل لعامها الخامس عشر بعد شهرين. تلاقى الاثنان خلال الرقصات المتعددة والغنائيات، فرقصا معًا وغنيا وضحكا معًا، وكادا يحتضنان بعضهما البعض. الكل راضٍ عن تقاربهما، وبخاصة عائلتاهما: عائلة الحداد وعائلة أم تيماتي. أم تيماتي كانت هي الأجمل منذ سنوات، وأنجبت بكريها «هِذْهِدو» الذي تزوج منذ عام، ثم هذه الجميلة تيماتي التي ورثت جمالها.

من ثار ثورة عارمة وكتمها في قلبه، هو «كمالو» ابن العمدة. من جيل تيماتي وآبيسو. ولأنه ابن العمدة، وهو الصبي الوحيد الذي

أنجبه أبوه بعد أربع فتيات، فقد نال من التدليل الكثير والكثير. فصارت طلباته ورغباته أوامر. أوامر تُنفذ من قِبَل والده ووالدته وإخوته، ثم خُيِّل له أن طلباته ورغباته يجب أن تنصاع لها القرية كلها! أليس هو ابن العمدة؟ والعمدة من أغنى أغنياء القرية، مع تاجر البن. وإن كان العمدة بمنصبه، يزيد عن الجميع سلطة وهيبة، فالقرية خصصت له خمسة رجال بحِرابهم وضخامتهم. خمسة يأتمرون بأوامره ويقومون بتنفيذها مهما كانت، فالعمدة هو المسئول عن أمن وتنظيم القرية. أليس هو كمالو من سيصير العمدة بعد سنوات تطول أو تقصر؟ فكيف لهذه الفتاة تيماتي، كيف لها أن ترفض تودده لها، وتلقي بنفسها على شاب فقير؟ كيف لها أن تفضل عليه آبيسو ابن الحداد، حتى وإن كان آبيسو وسيمًا قوي الجسد؟

بين جيل تيماتي وآبيسو وكمالو، أولاد وبنات يعرفون قصص الحب التي تدور بينهم، من تميل لمن، ومن يميل لمن. وكلهم بنات وأولاد لا يميلون لكمالو المدلل المغرور. لا يتقبلون تصرفاته المخنثة. إنه طري كالفتيات المدللات، ناعم مثلهن. أطلقوا عليه نعت كماليا الطرية. وكماليا مؤنث كمالو.

في الرقص حاول كمالو أن يجذب أنظار المشاهدين، وبخاصة أنظار الفتيات. يعطي أفضل ما عنده من حركات راقصة وفتوة، لكن هيهات! أين هو من وسامة وقوة ورشاقة آبيسو؟ كمالو ظهر عليه التعب سريعًا، والعرق بلله تمامًا وتباطأت حركاته. وآبيسو مستمر في عنفوانه، يجوب الدائرة فخورًا متعاجبًا واثقًا من نفسه. العرق يسيل منه، عرق القوة والفتوة، لا عرق التعب والإجهاد. وفتاته تيماتي الجميلة تجاريه وتعلن برقصها وضحكها، أنها تحبه، وأنها له وأنه لها.

وسط كبار رجال القرية، الجالسين على دكك خشبية يتابعون الرقصات والأغاني، يجلس العمدة وخلفه اثنان من رجاله بحِرابهما. يعطيانه الهيبة والسلطة الباطشة وقت اللزوم. الاثنان بحِرابهما لا يفترقان عن العمدة طالما هو خارج البيت. العمدة يحاول مداراة قلقه على ابنه كمالو المدلل. لكن تاجر البن يعرف، والبقال يعرف، والحداد يعرف، والكل يعرف أن كمالو ابن العمدة يحقد على آبيسو ابن الحداد، وبالتالي فالعمدة غاضب على الحداد وابن الحداد.

الرقصات متنوعة. يشكلون جمعًا على هيئة مروحة تدور حول نفسها. ثم يتناثرون فرادى، يثبون مقلدين الأمطار الموسمية، ثم رقصات تقلد زراعة البن، ثم رقصات تندفع فيها صفوف الرجال لتخترق صفوف النساء، مع مشاغبات خفيفة، ثم يرتد الرجال لتهجم النساء. والكل في ضحك وكل النساء يتحملن بعض القرصات الخفية، ويرضين ببعض الكلمات الذكورية السريعة، التي تصف جمال صدر أو بروز مؤخرة. ومعظم تلك المغازلات ليست من أزواجهن، فأزواجهن مشغولون بمغازلة غيرهن.

ثم رقصة الحرب. الرجال والفتيان وكل منهم حمل حربته. رقصة جماعية تبين قوة قتال رجال وشباب القرية. رقصة شرسة المظهر وبها صرخات المقاتلين، وتؤيدها زغاريد النساء. ثم يعطون الفرصة لكل من الرجال والفتيان أن يرقص كل منهم وحده لدقائق مبينًا قوته ولياقته. فكان آبيسو من أقوى من قدموا عروضهم، وكان كمالو من أضعفهم. ثم النزال بين اثنين في تمثيل معركة بينهما. يظهر أحدهم فيبرز له آخر، وغالبًا ما يكون صديقه، فيؤديان مشهدًا متفقًا عليه، به بعض الحركات التي تخلب ألباب المشاهدين خاصة النساء. ولما برز كمالو أسرع آبيسو ليظهر متحديًا له، متخطيًا هِدْهِدو الذي كان

قد اتفق معه على الرقص. وعلى حركات تبرز حنكة وقوة كمالو. لم يستطع كمالو أن يرفض أو أن ينسحب. فتقاتلا، وكان آبيسو هو الأبرز بوضوح، وفعل ما يحرج كمالو، ويبين رخاوته وجهله بفنون القتال. فانفجرت بعض الضحكات الساخرة من كمالو، مما أحرج كمالو وأحرج أباه.

الكبار والصغار، الرجال والنساء، الفتية والفتيات، كلهم يتحاشون سومو الأبله! أضخمهم جسدًا وقوته البدنية هائلة، سومو وصل للسابعة عشرة من عمره. مُصِر على الزواج، فإن لم تكن تيماتي فلتكن غيرها. جيله تزوج. وجدّته قالت له إن أخاه الذي يصغره بعام، سيتزوج! فَلِمَ يبق هو بدون زوجة؟ سومو لا يستطيع أن يفكر كما تفكر الفتيات. فمن منهن ترضى أن تتزوج بمن توقف عقله عند طفولة، لا تتخطى السادسة أو السابعة من العمر؟! من تتزوج من لا يعمل لا في الحقول ولا في غيرها، ويتكفل به أخوه الأصغر. لذا لما أخذ حربة من أحد الشباب، ودخل الساحة ليرقص رقصة الحرب لم يزامله أحد، يخشون مفاجآته، فربما حول التشخيص إلى حقيقة وطعن من يراقصه! تركوه يحارب الهواء وكأنه طفل صغير يثير الضحك والمرح فعلًا. ويصيح بصوته الجهوري صيحات تخيف فعلًا. لم يتوقف حتى دخل رجل الساحة حاملًا حربته، وادعَى أنه يراقصه، وسحبه لداخل الصفوف بهدوء.

سومو في جميع الرقصات، رقصه لا يتناغم من إيقاع الطبول، ولا غناؤه يتناغم مع أغاني المغنين. يرقص كما يحلو له ويغني بصوته الأجش العميق كما يشاء. يترك صفوف الفتيان ويدخل صفوف الفتيات، فيرتبكن ويصرخن ويبتعدن عنه. الكبار يعيدونه ضاحكين حتى لا يغضبوه، فإن غضب فسيضرب من أغضبه ويفسد

عليهم فرحة العيد، ولن يستطيع أحد التغلب عليه. سومو أبدى إعجابه بالجميلة تيماتي كثيرًا، وكثيرًا ما كانت تصدّه تيماتي وتعامله بترفع. وصُدِمت عندما كرر طلبه الزواج من ساعة زمن! فكيف وهي أجمل فتيات جيلها، تقبل تودد هذا الأبله الذي هو مسخرة القرية كلها؟ آبيسو لم يعمل أي حساب لهذا الميل من سومو لتيماتي، لم يظن ولا برهة واحدة أن سومو سيأخذ ولو نظرة رضا من تيماتي، وكمالو المدلل لم يهتم أيضًا بهذا الأبله التافه. الأبله لم ولن يكون منافسًا لهما، ولم يفكر أحد أنه ربما يكون خطيرًا من جوانب أخرى.

بين توالي الرقصات. إذا بسومو يخترق المساحة الصغيرة الفاصلة بين الفتية والفتيات، ويفاجئ الجميع باحتضان تيماتي الجميلة! صرخت الفتاة رعبًا. اندفع الشباب والرجال، وأمسكوا بسومو الذي يضحك، على أنه أتى بعمل غريب مفاجئ أفزع الجميع. لكن عندما نال الكثير من الصفعات والشتائم، وبخاصة من آبيسو وهِدْهِدو أخي تيماتي. ثار سومو فأطاح بآبيسو وبغيره ممن يضربونه، وأمسك بهِدْهِدو من زوره فكاد يخلعه عن جسده.

باظ احتفال الليلة الأولى من احتفالات الحصاد وانقلب نكدًا. لم يهدأ سومو حتى بعد أن تعلق أخوه سلاسو برقبته، وأتته جدته رهيسة باكية ترجوه أن يهدأ. تحاول جدته أخذه بعيدا وهو يلعن الجميع بلعنات الأطفال: يا قبيحين يا أغبياء.. يا عديمي الفهم.. لماذا تضربوني؟! أنا أضربكم.. أضربكم أنا. وهنا تدخل الثلاثة من رجال العمدة، وبمعاونة عدد من الرجال، أمسكوا بسومو وجعلوا ذراعيه خلف ظهره في قسوة. وأمسكوا بشعره المجدول للخلف وقادوه رغمًا عنه بعيدًا عن حلقة الاحتفال. الأطفال من بعيد يغيظون سومو بنداء: سومو الأبله، سومو الأبله. بعض الكبار أبعدوا الأطفال.

قادوه حتى بيته حيث أجلسوه رغمًا عنه. وتولت جدته رهيسة وأخوه سلاسو إبقاءه في البيت.

القرية تستكمل الليلة الراقصة المغناة، لكن الاستكمال لم يكن كما في البداية، فما حدث ألقى بغلالة ضيق، فتعكرت الفرحة المشهودة. وباخت سعادة تيماتي الجميلة وانطلاقها الشبابي المبهج. وآبيسو كان في حرج، فرغم شبابه وقوته ورشاقته، ضربة من سومو أطاحت به أرضًا! وهذا لم يمنع أن بعض الفتيات الحاسدات سعدن بما جرى، وواضح للجميع أن كمالو ابن العمدة، قد انفرجت أساريره لما فعله سومو الأبله. وادعى العمدة الغضب من سومو، لكن فرحته التي حاول مداراتها، كانت ظاهرة في بريق عينيه. ومن ضمن الحاسدين الحاقدين على الجميع، والذي سعد وانبسط مما جرى، كان عازف الطبل «سلفاي» الأعرج. سعيد ببواخ الرقص، فهو لم يرقص منذ طفولته، بعد سقوطه في منحدرات البن، وإنقاذه من استكمال السقوط والموت في نهاية الهاوية، أصيبت ساقه ولازمه العرج، ولم يستطع العمل بعد ذلك، ولم يعد يشارك في الرقص. سلفاي من طفولته وبه ميل للشر واللؤم، ليس السبب فقر عائلته التي لا تمتلك أرضًا تزرعها، فعدد من العائلات فقراء مثل عائلته. وزاد شره وتعمق لؤمه بعد إصابته بالعرج، وأغضبه كثيرا ما قيل له.. إن إله الغضب والانتقام فعل بك ذلك.

سلاسو يكد في عمله ليصرف على أخيه سومو وجدتهما رهيسة، ويجهز نفسه للزواج. الأم ماتت بعد ولادة سومو. رهيسة تقوم بدور الأم لهما بقدر استطاعتها. الأب مات من موسمين، كان على ظهر حماره يتابع حقله. فانزلق الحمار وتدحرج به حتى تخطى كل مصاطب البن، وسقط في الهاوية التي تحت هضبة القرية.

الآن سلاسو زاد قلقه فأسهده. سيتزوج فتاة من قرية مجاورة. وليس بمقدوره بناء بيت خاص به. سيقيم في بيت والديه حيث يقيم أخوه الأبله. فكيف سيأمن عليها من هذا الطفل الضخم المتهور، هذا الأبله الذي لا يعي بتقاليد ولا بأعراف، ولن يفهم أن زوجة أخيه بمثابة أخت له! مضطر سلاسو أن يأتي بزوجته في بيت فيه هذا الكارثة المسمى سومو!

بقي سومو في بيته لا يخرج منه طوال ليالي احتفالات الحصاد، كان حزينًا من ضرب الناس له، مغتاظًا من أتباع العمدة وغيرهم، الذين أجبروه على المغادرة. لا يفهم لِمَ يمنعه الناس من احتضان تيماتي الجميلة، فهو يميل لها، وقد شعر بنشوة من ليونة جسدها! قالوا إنها تحب آبيسو وستتزوجه، فليكن. ما المانع أن يحتضنها هو ويحتضنها آبيسو أيضًا؟! غاضب أن تيماتي الجميلة ضربته بقبضتيها، ثم خربشته بأظافرها الحادة، تركت سجحات في وجهه خاصة ناحية العينين! بل قليلة الأدب، بصقت عليه بعد أن أبعدوه عنها قليلًا! لماذا؟ لم يفهم شرح جدته رهيسة ولن يفهم. لكنه قرر مهاودة جدته وبقية ناس القرية، فقال لجدته:

- زواج ضروري. خلاص. أنا أتزوج تيماتي الجميلة. تيماتي الجميلة تحب آبيسو، تتزوج أيضًا آبيسو. هكذا لا مشاكل. لا غضب. لا ضرب. لا خربشات.

الأيام الثلاثة كانت الأيام الفاصلة بين القرية قبل العاصفة، والقرية في مهب العاصفة.

القرية في مهب العاصفة

سومو الأطفال من جيله كبروا وصاروا شبابًا وتزوجوا، وهو يكبر جسدًا مثلهم ويبقى عقلًا ونفسًا طفلًا ساذجًا، يواصل اللعب مع الجيل الذي يليه، ثم الذي يليه. وكل جيل من الأطفال عندما يكتشفون بلاهة سومو، يقسون عليه سخرية ومؤامرات طفولية. سومو وهو أقواهم لا يهون عليه أن يؤذي أحدًا منهم. يسرع إلى جدته رهيسة ليبكي في حضنها. رهيسة تذهب لعائلات الأطفال الأكثر قسوة على سومو. تشكو أطفالهم وترجوهم أن يأمروا أطفالهم بالكف عن القسوة، لكن لا أحد يستطيع أن يمنع الأطفال من قسوتهم المعتادة.

سومو لم يعد طفلًا جسدًا، كما لم ولن يصير ناضجًا حقيقة. من الطفولة بقيت معه سذاجتها وفطرتها وضيق أفقها. ومن النضج الذكوري لم يأخذ سوى النضج الجنسي. فيا ويل من يكتوي بنار الجنس وهو الطفل الغرير.

طفولة سومو المستمرة معه، هي مكمن خطورته. فسومو ليس مسئولا عن تصرفاته. بالغ الطيبة لا يضر، حين يمزح مع أحد ويحتضنه ويرفعه عن الأرض، فيكاد يخنقه ويعصره، وهو يضحك غير واعٍ بأنه يؤلم من يحمله! وسومو صار فتى فتيًّا. الأطفال لم يرحموه، يزيدون تجبرًا عليه، يقذفونه بالطوب ويختبئون. سومو لا يطاردهم، فقط يحذرهم أنه سيغضب منهم. وكثيرًا ما يدبرون مؤامرات عليه خاصة مؤامرة لعبتهم على الحب الكبير الذي يُكنه سومو لجدته. يوهمونه

بأن جدته مريضة وتناديه ليلحق بها، فيعدو سومو باكيًا لبيته. يجد جدته رهيسة بخير. يضحك ويفرح بها ويحتضنها ويحكي بكلماته القليلة أكذوبة الأطفال.

جسده يزداد اشتهاءً لأجساد النساء. رغبته الحارقة لهن لا تهدأ. فلماذا تمتنع عنه النساء؟! يحتضن أيًّا منهن، سواء كانت متزوجة أو بكرًا، فتصرخ فزعة، ويهرع الرجال والشباب ويبعدونه عنها.

لا كمالو يئس من انتزاع تيماتي الجميلة، ولا سومو يئس من احتضانها والرغبة في الزواج منها. كمالو بمساعدة سلفاي الأعرج، يتابع تيماتي في كل حركاتها وسكناتها بعد عودتها من حقل البن. سلفاي اعترض طريق تيماتي الجميلة مرتين، وهي تتسلل لمقابلة آبيسو في الأحراش. اضطر آبيسو أن يهدد سلفاي ويضربه، لكن سلفاي لم يرتدع، خاصة أن كبار القرية والعمدة، لاموا آبيسو على ضربه لشاب أعرج. ولم يستطع آبيسو أن يقول سبب ضربه لسلفاي، فهل يقول إن سلفاي يُفشل لقاءاته بتيماتي؟! من بعد ضرب آبيسو لسلفاي، لم يعد سلفاي يجتهد فقط لتكون تيماتي من نصيب كمالو، بل يجتهد ويتخابث ليضر آبيسو الذي ضربه. فقابل سومو وكأن المقابلة صدفة، وقال له ببساطة إنه، أي سومو، من حقه أن يتزوج تيماتي الجميلة، وإن تيماتي ستسمعه إن قابلها وحدها وبدون زحام وصارحها برغبته.

موسم الأمطار الغزيرة. النهار كله عمل الحفر الصغيرة ووضع البذور بها. والعمل في زراعة الخضراوات الضرورية. بعد الغروب الكل في بيته تَعِبٌ، يجففون ملابسهم ويستعدون للعشاء ولشرب القهوة الساخنة. سلفاي يتوقع خروج تيماتي لمقابلة آبيسو. يراقب من تحت شجرة لا تحميه تمامًا من الأمطار الغزيرة. يتحمل البلل ليبرد

نيران أحقاده. أبلغ سومو من قبل ثلاث مرات. ويذهب سومو ليفاجئ تيماتي، ولا تحضر تيماتي، لكن سلفاي لا ييأس ولا ييأس سومو.

خرجت تيماتي من بيتها متسللة لتلاقي آبيسو. شابة فاتنة مفتونة بمن تحب، فلا تمنعها أمطار غزيرة من الانطلاق لمقابلة حبيبها. داخل منطقة الأشجار والأحراش الكثيفة، تنتظر تحت شجرة معلومة لديهما. فوجدت سومو الضخم عاري الصدر يواجهها. فزعت وسومو يقترب منها مبللًا ولا يأبه بالأمطار مثلها، يقول بكلماته الطفولية إنه يريد الزواج منها. تيماتي تتقهقر للخلف خائفة، ترجو سومو أن يبتعد عنها. سومو لا يريد أذيتها. يردد كلمة واحدة: زواج أنا وأنتِ، زواج أنا وأنتِ. اقترب سومو أكثر، فلاحظت تيماتي رغم الظلام والأمطار، انتصاب عضوه من تحت مئزره. صرخت مستنجدة. سومو احتضنها محاولًا كتم صراخها. أنشبت أظافر أصابعها في وجهه مستهدفة عينيه. آبيسو يخطو بخطوات سريعة لمقابلة تيماتي الجميلة، ولما سمع صراخها ارتعب وزاد من سرعته لينقذ حبيبته. سومو يترك تيماتي متألما من خربشاتها. يقسم بالآلهة إنه لا يريد أذيتها.. أريد زواج أنا وأنتِ. آبيسو شاهد ما يجري من بُعد خطوات. التقط غصن شجرة ملقى أرضًا، وهجم على سومو من الخلف، وضربه على رأسه بكل غضب وغل. وقع سومو مغشيًّا عليه والدماء تسيل من رأسه المصاب إصابة بالغة.

العمدة وأغلب ناس القرية، أعلنوا أن سومو صار خطرًا على كل نساء وفتيات القرية. وأنه سيتسبب في فضائح لا نهاية لها بأفاعيله. وأن خطورته شديدة نظرا لعقله الطفولي وقوته الهائلة. وفي اجتماع في بيت العمدة. أتى تحت الأمطار، الكاهن وبقال القرية وتاجر البن، والجريوت التي تتولى علاج رأس سومو، وعدد من كبار السن.

قرروا إن اغتصب سومو أي أنثى في القرية، فسيكون جزاؤه الموت، وإن هاجم أنثى وحاول اغتصابها، ولم يتمكن، فالجزاء يكون بتر عضوه الذكوري، جزاءً لمحاولته الاغتصاب، وليحموا زوجاتهم وبناتهم. ثلاثة لم يوافقوا على هذا الحكم القاسي: الجريوت وتاجر البن والكاهن، الذي أكد مشددًا أن الآلهة لا تتقبل قتل الأطفال ولا خصي الرجال.

أُعلن القراران: القتل والإخصاء. وأبلغوا سلاسو ورهيسة ليحذروا سومو. فحذراه، لكن سومو لم يفهم ولم يأبه. حتى حين ثار سلاسو وأمسك بعضو سومو، ومثَّل عملية القطع. ضحك سومو خجلا ودفع سلاسو فأسقطه أرضًا، واستمر في الضحك حتى ضحكت رهيسة وبكت.

الإشفاق على سومو والخوف منه، هما السائدان في ناس القرية. رهيسة أصابها الرعب على حفيدها. متأكدة أن رغبة سومو الجنسية، رغبة طافحة ليس لها مِن سَد يحجزها. ففكرت في أمر مخزٍ وإن كان ضروريًّا لتحفظ حياة حفيدها.

مر أسبوع على إصابته بضربة غصن الشجرة. زارته الجريوت العجوز كما تفعل كل ليلة. فكت رباط رأسه. وضعت لبخة جديدة عليه. طمأنت جدته رهيسة أن الجرح التأم. بعدها بدأ سومو يخرج من بيته تحت وابل الأمطار. يسير بين بيوت القرية صامتًا حزينًا. وكلما قابل أحد سواء كان رجلًا أم امرأة، كبيرًا أو صغيرًا أو حتى طفلًا. يوقفه ويشير لمكان الضربة التي تلقاها على رأسه. ويقول:

- انظر. ضربة شديدة. لماذا؟ هه.. لماذا؟

ثم يشير لآثار خربشات تيماتي في وجهه:

ـ انظر. خربشة شديدة. لماذا؟ هه.. لماذا؟

يعود سومو للبيت باكيًا. أقرب إنسي له وأحنهم عليه: جدته العجوز رهيسة. يبكي سومو بكاءً حارا بجوارها. استلقى على السرير ينتفض من حرقة بكائه. وهنا اقتنعت العجوز رهيسة بما فكرت فيه وانتوت فعله. لا بد أن تنقذ حفيدها من قطع عضوه، أو الموت قتيلًا بيد رجال القرية.

سومو يصعد ممر جبل الآلهة. يبقى يومًا كاملًا في الكهوف بدون طعام وشراب. ثم يعود جائعًا عطشًا. يأكل ويشرب بشراهة. أقنعته جدته بأن يأخذ معه سلة طعام وقربة مياه، وهو صاعد لكهوف الآلهة. مرت أيام هادئة، وارتاحت القرية من خوفها من سومو. سومو صار مجذوبًا لكهوف الأسلاف مثلما كان وهو طفل، وضح لناس القرية أن الآلهة قد بثت الهدوء في نفسه، وربما صار راهبًا في الكهوف بأسلوبه الطفولي. لكن سومو بتواجده في كهوف الآلهة، يقصد أيضًا الابتعاد عن حفلات الزفاف المتوالية. لم يعد متحمسًا للرقصات. نفسه المتعبة تحملت إهانات في رقصات احتفال حصاد البن. ثم اقتنع برجاء جدته رهيسة، أن يتواجد فقط في ليالي زفاف أخيه الوحيد، لترضى عنه روحا أبيه وأمه. وهنا حدث ما حدث.. لتدخل القرية في عين العاصفة.

ليالي الزفاف. كل حفل له ثلاثة أيام بثلاث ليالٍ. تم إنهاء سبعة أعراس. ثم بدأت ليالي عرس سلاسو. سومو متواجد وسط الناس، فاتر لا يغني ولا يرقص ولا يلعب مع الأطفال، ينأى بنفسه عن الزحام بقدر ما يستطيع. يرد تحيات الناس ببرود. لم تحضر تيماتي الجميلة كما لم يحضر آبيسو ولا حتى كمالو ابن العمدة. حضر تاجر البن والعمدة. لكن حينما نظر سومو إلى أتباع العمدة في رفض غاضب،

أمرهم العمدة بالانسحاب. حضر سلفاي واقترب من سومو وأخذ يواسيه، ويحرضه على آبيسو الذي ضربه من الخلف لأنه جبان.

استضافت القرية عائلة العروس. الليلة الأولى، رقص خفيف وغناء هادئ وطعام وفير وخمر بسيطة. الليلة التالية الحفل الأساسي بالغناء والرقص العميقين والطعام الدسم والخمر الوفيرة، ثم الليلة الثالثة ليلة الختام التي تنتهي بعد الغروب. ليلة دخلة العريس على عروسه. مر اليوم الأول والثاني بسلام، رغم الخشية الواضحة من عائلة العروس، خشيتهم من سومو الأبله القوي الصامت، وعينيه القلقتين. كيف ستتعامل ابنتهم الشابة التي لا يزيد عمرها عن الخامسة عشرة، كيف ستتعامل مع هذا العملاق الأبله؟

الليلة الثالثة وكأنها ستمر مرور الكرام كسابقتيها. انتهى تناول الطعام والشراب، وانتهت الرقصات والأغاني. زفّة توصيل العروسين. العريس في أبهى زينته على ظهر حمار ويردف خلفه عروسه المزدانة بالأصباغ والزيوت العطرية وبقطع من الذهب. الجموع تغني وترقص لهما. هبط العريس وأخذ بيد عروسه يساعدها على النزول من ظهر الحمار، ثم حملها ودخل بها بيته، وسط تهاني الرجال وزغاريد النساء، ثم دلف إلى حجرتهما التي خُصصت لهما، وأغلق خلفه الباب. البيت أصلا من حجرتين؛ حجرة كانت لوالدَي سلاسو وسومو، هي ما سينفرد بها سلاسو بزوجه، والحجرة الثانية حجرة سومو والجدّة رهيسة. انصرف الجميع،حتى أم العروس وأبوها وخالها وابن خالتها ذهبوا حيث تمت استضافتهم في بيت تاجر البن.

عم الهدوء من منتصف الليل، وعم الصمت بيت الجدة رهيسة،

رهيسة نامت في سريرها الحاوي لها ولسومو الذي سبقها للنوم، وأخذ مكانه بجوار الحائط كالمعتاد. ينظر للحائط ويعطي ظهره لجدته. مصباحهما مطفأ. تظن رهيسة أن سومو نائم. حجرة العروسين مصباحها مضيء. والعروسان الجديدان مشغولان بمتعة الجسد، ولم يتمالكا نفسيهما فتصاعدت همهمات المتعة. سومو مستيقظ يدّعي النوم. وكيف ينام ونار الشهوة تحرقه حرقًا، ولا يعلم لِمَ هو بدون أنثى، وأخوه الأصغر منه ينفرد بأنثى على بعد خطوات منه! ولما صرخت زوجة أخيه صرخة فرحة، وأعقبتها بتأوهات كانت مدوّية رغم همسها، لم يستطع سومو أن يتحمل، اندفع جذعه منتصبًا. فتحت جدته رهيسة عينيها في الظلام وقد أحست به. تخطاها سومو وهبط من السرير. وقبل أن تمسك به العجوز. كان سومو قد أخذ الخطوات الفاصلة بين حجرته وحجرة أخيه العريس. أخذ يضرب بقبضتيه في الباب المغلق. يصرخ غاضبًا:

- وأنا أيضًا. أنا أيضًا أريد العروس. يا سلاسو اخرج. أنا أيضًا أريد. أنا أكبر منك يا سلاسو.

رهيسة تحاول إمساك سومو. ترجوه أن يصمت ويعود لحجرتهما. لم يأبه بها سومو. مستمر في صراخه. مستمر في الطَّرق بقبضتيه على الباب. مستمر في طلبه الصريح بأنه يريد نكاح الفتاة الشابة التي ينكحها أخوه الأصغر سلاسو. ولما بدأ سومو في ضرب الباب بكتفه ليخلعه من مكانه، اضطرت العجوز للخروج من البيت كله، والصراخ طالبة النجدة من الناس، فأتوا سريعًا. أقوى الرجال أمسكوا سومو وتحملوا ضرباته العنيفة وعضّاته القاسية ولعناته الطفولية. ربطوا ذراعيه في جذعه بحبل قوي، وسحبوه لحجرته ثم استكملوا ربطه حتى أخمص قدميه. سومو يحاول تمزيق الحبال ليمزق من

يربطونه تمزيقًا، ولما عجز عن ذلك صار يبكي مناديًا أمه التي ماتت، ويسترحم أخاه الذي لم يخرج من حجرته. أخوه سلاسو غارق في الخوف والخجل مما فعله فيه سومو. أما العروس فأغشي عليها، ولما أفاقت لم تتوقف عن البكاء. ولما دخلت عليها أمها، انخرطت في بكاء ونشيج عميقين، وترجت أمها أن تعود بها لقريتهما. أخذوا العروس لتقضي ليلتها في بيت تاجر البن مع عائلتها.

في الصباح الباكر. عادت العروس مع أهلها إلى قريتها، وذهب معهم سلاسو الذي قرر هجر قريته التي تم فضحه فيها، والابتعاد عن أخيه الأبله، الذي سبب له تلك الفضيحة المخزية. قرر أن تكون قرية زوجته هي قريته بقية عمره.

يسير سومو عاري الصدر كعادته خلال البيوت. ثمرات مانجو سقطت من شجرتها بجواره. وقف بجوار واحدة منها، تناديه بنضجها وحلاوتها. ينظر إليها ثم يبتعد زاهدًا، لا يكلم أحدًا. قرر مخاصمة القرية التي تكاتفت لتكتفه وتضربه. ولا يكلمه أحد وهو في مثل هذه الحالة من الغضب والحزن. ينال الكثير من نظرات الشفقة والكثير من نظرات الخوف. الأطفال في هذه الأيام يخشونه ولا يجرءون على معاكسته. إن مر بهم، يتوقفون عن لهوهم مبتعدين عن طريقه. المقهى.. عدد من الرجال والنساء، بينهم العجوز جريوت القرية، أمامهم أقداح القهوة. ولما دخل عليهم سومو صمت الجميع. سومو اتخذ مكانًا منفردا ولم يُلقِ عليهم السلام. جاءته الجريوت العجوز بقدح قهوة، فأزاح سومو القدح بعيدا. بقي ساكنًا ثم قام مغادرًا بلا كلمة. في حشاه نار لا يستطيع أن يعبر عنها. ولما ابتعد قالت العجوز جريوت:

ـ يا رعب أيامنا القادمة. الفتى سومو في احتياج لأنثى. وسيجدها مهما وقفت أمامه القرية كلها. إنها الشهوة الفطرية يا ناس.

الليل والبيت ليس فيه سوى سومو وجدته العجوز رهيسة. سومو مستلقٍ على سريره ووجهه للحائط. جدته رهيسة تستجمع شجاعتها لتنفذ ما انتوته. خجلة من نفسها. خجلة من حفيدها سومو. خجلة من ابنتها التي ماتت وتركت لها هذا الشاب الطفل الأبله. اتجهت ناحية السرير الذي تنام عليه مع حفيدها. سومو ظهره ناحيتها. استلقت خلفه وفكت مئزره. عرت وسطه وأخذت تمسح بزيت عضوه المشدود. تمنَّع سومو أولًا وهو متعجب بما تفعله جدته! لكنها أصرّت واستمرت فبدأ يشعر بلذة غريبة يحتاجها بشدة، يحتاجها بعنف. سريعًا اندمج وصار يتأوه ثم قذف منيه فلوث يد جدته والفراش. وهنا استراح وأخذه الخجل فلم يلتفت إلى جدته. جدته غارقة في الخجل أكثر منه. تركته ينام مسترخي الجسد وبه سعادة طفولية ذكورية لم يشعر بها من قبل. وصار كل ليلة يستلقي منتظرا منها تكرار الفعل، وجدَّته العجوز تفعل ما تعود عليه حفيدها مضطرة، ثم تبتعد لتغسل يدها باكية.

صار سومو أكثر هدوءًا. لم يمتنع عن نظراته الشهوانية للنساء. بل كلما شاهد تيماتي، الرغبة القوية تشع من عينيه. لكنه لم يعد يقترب من أي أنثى، فشهوته هدأت قليلًا، والتكتيف والضرب ينتظرانه إن فعل.

لم يفهم الناس سبب هدوء سومو. قالوا زيارته للآلهة وبركتها هي السبب، وربما ضربة آبيسو بجذع الشجرة، ثم تكتيفه ليوم كامل بعد أن حاول الاعتداء على زوجة أخيه. لكن لم يتوقع أحد أن السبب، هو يد جدته الحانية على عضوه. ورغم الهدوء النفسي لسومو، لم

ينس أن آبيسو ضربه من خلفه. وكلما وقع نظره على آبيسو، ينظر ناحيته نظرات الكراهية والتهديد.

عادت القرية للعمل الشاق في زراعة البن. آبيسو في محل أبيه الحداد، البقالة تعمل، والمقهى يعمل. وتاجر البن على الحمير العديدة، ينقل البن لمكان التاجر الأكبر، الذي يتلقى البن من القرى ويبيع بدوره لتاجر أكبر من خارج القرى. الأمور تسير عادية. وجيل تيماتي وآبيسو وكمالو متلهف على موسم الحصاد القادم، حيث سيكون دورهم في الزواج. الأمور في ظاهرها عادية. مشاغبات الصبية والصبايا الخفية. لكن النار التحتية، مشتعلة في حشا شابين لم يرتاحا ولن يرتاحا إلا بتحقيق شهوتيهما. سومو واحتياجه وإصراره على نيل جسد أنثى، والتي في باله والتي يتمناها، والتي يصر عليها هي تيماتي الجميلة. والثاني هو كمالو ابن العمدة. وإصراره على نفس الأنثى التي يأملها سومو الأبله! كمالو يتمنى تيماتي الجميلة، ليس فقط لجمال وجهها وحلاوة جسدها، فهو بعلم أمه ومساعدتها، يمارس الجنس مع خادمة فقيرة تُهبط نيران رغبته. كمالو المدلل المغرور، اعتبر رفض تيماتي الجميلة له، إهانة لمكانته وغِناه! المسألة عنده مسألة كرامة، لذلك يصر على أن يحوزها. طالب بمساعدة أبيه العمدة، وأكد أن هِدْهِدو أخا تيماتي، موافق على زواجه من أخته تيماتي. أبو كمالو العمدة، قال إن الحداد بالفعل اتفق مع والدَي تيماتي على زواج ابنه آبيسو من تيماتي بعد أعياد الحصاد القادم، وإن موقف هِدْهِدو المؤيد لكمالو ليس له تأثير. إذن لا أمل، عليك يا كمالو أن تفكر في أخرى. أما أم كمالو فلم تقطع الأمل طالما أن ابنها مُصر على تيماتي. حادثت أم تيماتي سرًّا، أغرتها بالمال وبالمكانة، أغرتها ببناء بيت أجمل وأوسع مما

هي فيه، لكن أم تيماتي رفضت، فهي تعلم مدى شغف ابنتها بآبيسو. أم كمالو شجعت ابنها على الاستمرار في محاولة إغراء تيماتي بالذهب والملابس الغالية، والعيشة الرغَد بدلا من بهدلة العمل في حقول البن. والأعرج سلفاي يساعد كمالو في مراقبة تيماتي وإبلاغه بكل ما يتقول به الناس عنه. سلفاي ساقه اليمنى المهيضة منعته من العمل في زراعة البن، منعته من أي عمل يحتاج لشيء من المجهود، حتى في سيره يسير بصعوبة، ليس له إلا العمل في تصنيع أطباق الخوص، مثله مثل السيدات العجائز. وفي الاحتفالات يكون من ضمن الجالسين الضاربين على الطبول. هذا كل ما يستطيعه، بخلاف أنه رضي على نفسه أن يكون تابعًا لكمالو ابن العمدة، ويتقبل منه تعاليه وغروره، مقابل أن يتناول الطعام والشراب في بيته، وأن يتقبل كل فترة ملبسًا مستعملًا من ملابس كمالو، وقطع لحوم في المناسبات..

ثم كانت الحادثة التي جرت..

الحادثة التي جَرَتْ

الغروب.. من بعد عودة تيماتي الجميلة من الحقول ودخول بيتها مع والديها. سلفاي يتابعهم وكمالو قريب منه ينتظر. ولما تسللت تيماتي خارجة. أسرع سلفاي بعرجته ليبلغ كمالو أن تيماتي ستذهب لمقابلة آبيسو في المكان المعتاد. كمالو أسرع لينفرد بتيماتي قبل وصول آبيسو. إنها آخر فرصة ليغريها بسوار ذهب، وبما ينتظرها من هدايا إن وافقت عليه وتخلت عن آبيسو. تيماتي منتظرة عند الشجرة المعتادة، لمحت شبح كمالو فظنته آبيسو. نادت بصوت خفيض:

ـ آبيسو. أنا هنا عند شجرتنا.

فوجئت بأن من يقترب منها هو كمالو! لم يمهلها كمالو. يحثها على قبوله زوجًا لها، وأن الذهب والملابس الغالية والبيت الواسع والعيشة الرغَد تنتظرها، هذا بدلا من شقاء زراعة البن. ثم مد يده بالسوار الذهبي. تيماتي تتوقع وصول آبيسو في أي لحظة. لم تعلم أنه مشغول في عمل مفاجئ. أبعدت يد كمالو حاملة السوار، وسخرت من ذهبه وشامل عروض إغرائه. غضب كمالو من سخريتها، فسخر من فقرها وبؤس بيتها. عايرته بميوعته وطراوته، سبها بألفاظ حقيرة، فاجأته بما يقوله الناس عنه، إن والده لم ينجب أربع بنات وفتى، بل أنجب خمس فتيات، وإن شهرته بين الأصدقاء أنه الفتاة كماليا الطرية، وليس الفتى كمالو. فكيف أتزوج من الفتاة كماليا الطرية!

لم يتحمل كمالو المدلل المغرور كل هذه الإهانات. هجم على

تيماتي وأخذ يسبها ويصفعها ثائرًا. تيماتي بادلته الهجوم بهجوم. تسبه وتسب والديه، وبأظافرها خربشته بقسوة في وجهه. دفعها بذراعيه فارتدت بظهرها على ساق الشجرة. مد يديه ومزق قميصها. صدرها العاري ألهبه فأضيف على حقده وغيظه شهوته التي انفجرت فيه. بصقت تيماتي في وجهه، فلكمها في وجنتها فسقطت أرضًا. برك على بطنها يخنقها بغل وحقد وشهوة وهو يراقب نهديها. تيماتي تخربش وجهه بأظافرها وتركز على عينيه. كمالو يتحمل الخربشات الحادة مغلقًا عينيه، ويوالي الضغط على رقبتها حتى سكنت حركتها. توقف عن الخنق ونظر لوجهها. عيناها جاحظتان مرعوبتان. قام من فوقها. ناداها:

- تيماتي. تيماتي.

لا تتحرك تيماتي ولا تجيبه. ارتعش ونادى:

- سلفاي. سلفاي.

أقبل سلفاي. أشار كمالو ناحية تيماتي:

- هل ماتت؟

نظر إليها سلفاي:

- واضح أنها ماتت.

- يا للهول. ماذا سيفعل والدي؟

- المهم الآن. هيا لبيتك سريعًا.

انحنى سلفاي والتقط السوار الذهبي ووضعه في جيبه، ثم أمسك بساعد كمالو وجذبه وأسرع به عائدًا لبيت العمدة. وعند البيت، أمر سلفاي كمالو بأن ينتظر. دخل سلفاي البيت في هدوء. اتجه لحجرة

نوم العمدة. العمدة جالس يتسامر مع زوجته. نظر العمدة إلى سلفاي الذي اقتحم الحجرة نظرة غضب واحتقار. سلفاي واصل الدخول عليهما سريعًا بعرجته وبدون أي خجل! وقبل أن يزجره العمدة، قال في هدوء وإصرار:

ـ ابنك قتل تيماتي.

الذهول في وجهَي العمدة وزوجته. لم يجيبا. استمر سلفاي:

ـ أبعدوا الخدم عن طريق كمالو حين آتي به. فوجهه دامٍ مشوه بأظافر تيماتي القتيلة.

وصل آبيسو لمكان لقاء حبيبته تيماتي الجميلة. فلم يجدها. وجد جثتها! دقيقة ينظر للجثة، ولا يستطيع أن يستوعب أن تيماتي جثة ملقاة! أنفها مصاب ينزف. ووجنتها مزرقة. نهداها عاريان ونصفها السفلي يكاد يكون عاريًا تمامًا! صرخ:

ـ آآآآآه. تيماتي. آآآآآه. تيماتي.

خرج من بين الأشجار والأحراش يصرخ ويصرخ ويصرخ. وفي نفس الوقت، كان سلفاي يعود لبيت العمدة وبجانبه كمالو. ودخلا البيت مباشرة إلى حجرة كمالو. خلفهما مباشرة دخل العمدة الحائر المصدوم وزوجته الباكية. كمالو ارتمى على سريره مخبئا وجهه باكيًا. احتضنته أمه باكية معه. حكى سلفاي ما كان، وقال للعمدة:

ـ سأنقذ ابنك من جريمة قتله لتيماتي.

ـ كيف؟ قل كيف ولك مني مكافأة كبيرة!

ـ مكافأتي بيت كبير خاص بي، وتكلفة زواجي، ومقهى أرتزق به.

ـ المكافأة سأدفعها، لكن من... من ستتزوجك؟

ـ عليك بإقناع أي فتاة بمالك وسطوتك.

لم يفكر العمدة، وافق فورًا. قال سلفاي:

ـ عالج جروح ابنك، وامنع أي إنسي أن يراه فيلاحظ جروحه. الحجة أنه مريض بالحمى. وبعد أن تشفى جروحه له الظهور.

ـ قل لي أولًا، صريخ الناس بدأ يتصاعد، كيف ستنقذ ابني وحيدي من جريمة قتل تيماتي؟

ـ سأقول إني شاهدت سومو يهرب من مكان الحادثة. والكل يعلم أن سومو تهجم على تيماتي مرتين من قبل. ونلقي بهذا عقاب الجريمة على الأبله.

ناس القرية يسرعون ناحية موقع الجريمة. صراخ آبيسو لا يتوقف. ثم صراخ أم تيماتي وبكاء أبيها وأخيها هِدْهِدو. سلفاي يؤكد ويقسم بأنه شاهد سومو وهو يهرب من المكان. وكان مضطربًا وكأنه فعل فعلة مجرمة. الجموع تلعن سومو وتلوم العمدة وكبار القرية، أنهم تركوا سومو يبقى حرًّا رغم تهجماته، وها هو يقتل تيماتي الجميلة.

سومو وهو يهبط في ممر جبل الآلهة، وصله صراخ الناس. ذهب إلى بيته ليسأل جدته رهيسة. لم يجدها. استلقى على سريره. رهيسة دخلت عليه مسرعة ملتاعة. تنظر إليه في دهشة، لا تريد أن تصدق أنه قتل تيماتي. صاحت:

ـ سومو. سومو. هل... هل أنت...

سومو قام من سريره وأخذ خطوتين إليها متعجبًا:

ـ أنا ماذا يا جدتي؟

ـ هل أنت قتلت تيماتي؟

ـ ماذا؟! أنا؟ لا.. أنا لا.. أنا لا.

أغلب النساء مع أم القتيلة يصرخن ويندبن حول جثة تيماتي. جموع الثائرين رجالًا وشبابًا وفتية، يقودهم العمدة، متجهون ناحية بيت رهيسة. الطرقات محتشدة بهم. سلفاي يتحرك بصعوبة بين الجموع يؤكد ويقسم بالآلهة، إنه شاهد سومو وهو يسرع مبتعدًا من موقع الجريمة، لكنه لم يكن يتوقع أن سومو قد قتل تيماتي الجميلة. الثائرون يحملون عصيًّا غليظة، وبعضهم تهور فحمل سيوفًا وحِرابًا، الأسلحة التي يستخدمونها في حفلات الحصاد، ولم تستعمل من عشرات السنين في حرب حقيقية. يتجهون إلى بيت رهيسة العجوز لا يعلمون ماذا سيفعلون به.. هل سينهالون عليه ضربًا حتى الموت؟ هل سيقبضون عليه ويُكتفونه كالمعتاد؟ لم يفكر أحد. الغضب وسَورة الانتقام تسيرهم.

اقتربوا من بيت رهيسة وهم يهتفون: سومو قتل تيماتي.. سومو قتل تيماتي. وإذا بهم يشاهدون سومو يأتي ناحيتهم في سذاجة الأطفال وهو يصيح مُنكِرًا ما أبلغته جدته له: أنا؟ لا. أنا لا. أنا قتل تيماتي لا! العجوز رهيسة سبقت سومو مهرولة ناحية الجموع المسلحة الغاضبة، تقسم إن حفيدها سومو لم يقتل تيماتي. تقسم وتحاول الحيلولة بين الجماهير الشرسة المسرعة وبين حفيدها الأبله سومو. دهمتها الجموع الغاضبة وأسقطتها أرضًا، وفي مقدمتها هِدْهِدو أخو تيماتي وهو أحد حاملي الحِراب، والثلاثة أتباع العمدة. سومو شاهدهم يطيحون بجدته ويدوسون عليها ويتخطونها ناحيته. نسي اتهام قتله لتيماتي. ثار على ما فعلوه بجدته العجوز. هجم على الجموع المهاجمة. أطاح باثنين.. بثلاثة، منهم آبيسو الممسك بخنجر. وفجأة هِدْهِدو قذف حربته لتستقر في صدر سومو. ارتج جسد سومو. أمسك

بجذع الحربة الراشق في صدره غير مصدق أنه أصيب! سقط على ركبتيه فهجم عليه الشباب الثائر، وانهالوا عليه بالعصي على ظهره، وبكعوب السيوف والرماح على أم رأسه. سقط سومو على ظهره مُغمى عليه. انتزع هِدْهِدو حربته بقسوة من صدر سومو. الدماء تغطي رأسه ووجهه وعنقه وصدره. نظروا في وجه سومو، يحاول فتح عينيه. صدره يعلو ويهبط في شهيق وزفير عميقين! لم يمت بعد، رغم كل هذه الضربات، ورغم الحربة التي رشقت في صدره!

أربعة أشداء منهم أتباع العمدة الثلاثة، الكارهون لسومو. حملوه واتجهوا ناحية المعبد. لم يأبهوا بالدماء التي تسيل من سومو وتتساقط على رءوسهم وأعناقهم وأكتافهم. الكل خلف الأربعة الحاملين له يهتفون: الموت للقاتل.. الموت للقاتل. خلف المسيرة الشرسة الغاضبة يسير العمدة وبقّال القرية المتحمسان لقتل سومو.

وصلت الجموع للمعبد فوجدوا جثة تيماتي وقد أتوا بها ومددوها على ظهرها. الرعب متجسد على وجهها الميت، وجحوظ عينيها واضح. والدماء التي سالت من أنفها وفمها تجمدت. نهداها عاريان كما هما. فقط غطوا ساقيها. أبو تيماتي يبكي بكاءً حارًّا بجانب جثة ابنته. النساء في بكائهن يهتممن بأم تيماتي، يبعدونها عن الجثة. فأم القتيلة تكاد تفقد عقلها، وربما توقف قلبها من هول منظر جثة ابنتها. الفتيات يبكين تيماتي ويبعدن من تغمى عليها منهن. الكاهن وبجانبه الصبي اليافع يقفان في جمود بجوار باب المعبد. تاجر البن والجريوت محنيان يتمعنان في الجثة، وفي أظافرها التي حملت من آثار وجه قاتلها. الأربعة حاملو سومو ألقوه أرضًا بقسوة، فاستقر على جانبه بجوار جثة تيماتي. بأرجلهم يضربون في جسده حتى جعلوه مستلقيًا على ظهره. الأربعة وغيرهم يوجهون صياحهم للكاهن، وهم يشيرون بعصيهم وسلاحهم

إلى سومو، الذي في إغمائه لا يسمعهم ولا يشاهدهم. يصيحون: هذا هو القاتل. هذا هو القاتل. قَتْل القاتل عدل. قَتْل القاتل عدل.

الكاهن تقدم من سومو في عدم تصديق أنه قاتل. وجده وقد بدأ يفتح عينيه ويحاول الحركة. أم القتيلة تركت جثة ابنتها وارتمت على سومو تضربه في وجهه بكفيها، عضته في عنقه بِغل. أبعدوها وقد تلوثت بدماء سومو كما تلوثت من قبل بدماء ابنتها القتيلة. وقبل أن يتكلم الكاهن، قال تاجر البن للجموع:

ـ هل أنتم متأكدون أن سومو هو القاتل؟

الشباب المتحمس يصيح مستنكرًا تساؤل تاجر البن، مؤكدين أن سومو هو القاتل. صوت هِدْهِدو العالي، يذكِّر تاجر البن بأن سومو من قبل تهجم على تيماتي، وأن كل القرية تتذكر ماذا كان سيفعل في زوجة أخيه. ووسط كل هذه الردود العصبية، تصاعد صوت سلفاي، مؤكدًا أنه شاهد سومو يهرول خارجًا من منطقة الأشجار والأحراش الكثيفة. ثم صوت العمدة الذي أتى وواجه تاجر البن وقال غاضبًا:

ـ لماذا أنت متشكك أن سومو هو القاتل؟ ألم تسمع شهادة سلفاي؟

تدخلت الجريوت:

ـ أظافر القتيلة بها آثار من جلد وجه قاتلها. ووجه سومو ليس به إلا خربشات قديمة.

أجاب العمدة:

ـ خطأ هؤلاء الشباب أنهم أوسعوا سومو ضربًا، حتى ملئوا وجهه بالكدمات والجروح. وهذه الكدمات والجروح أخفت أماكن أظافر القتيلة.

بقّال القرية وافق على رأي العمدة. صيحات الشباب الغاضب، وأعلاهم صوتًا هو صوت سلفاي الأعرج، وآبيسو ابن الحداد خطيب تيماتي، وهِدْهِدو أخي تيماتي. صراخ أم القتيلة المتواصل وهي تلقي بنفسها مرة أخرى على جثة ابنتها، يزيد من قسوة المشهد، ويشعل أكثر من غضب الجموع، وإصرارهم على قتل سومو القاتل الغادر. تاجر البن صاح في إصرار:

ـ أنا غير متأكد أن سومو هو القاتل. أرفض قتل سومو قبل أن نتأكد.

الجريوت أيدت تاجر البن، رغم صيحات الجموع المصرّة على قتل سومو. الكاهن رفع يديه يطلب الهدوء. هدأت الجموع فقال:

ـ طالما أن الشك في بعض نفوسنا...

قبل أن يستكمل كلامه صاح سلفاي:

ـ أنا شاهدته يهرول من مكان القتل. أنا شاهدته.

صاح فيه تاجر البن:

ـ هل شاهدته يقتلها؟

ـ لا. لكن شاهدته يهرب من المكان.

ـ هل شاهده أحد غيرك وهو يهرب من المكان؟

ـ أتتهمني بالكذب؟

صاحت فيه الجريوت:

ـ أجب على السؤال. هل شاهدته يقتل القتيلة؟ وهل شاهده يهرب أحد غيرك؟

تدخل الكاهن في صوت خفيض وقور:

ـ دعونا نتأكد. فالآلهة لن تقبل ظلم تابعٍ لها مخلص. ولا تنسوا أن سومو منذ طفولته قريب من الآلهة.

صمت أوضح أن الشك ينتشر. العمدة كسر الصمت بصياحه إصرارًا أن جزاء سومو القاتل، هو القتل. هذا هو العدل، وهذا لحماية القرية من خطره. يؤكد أن هذا دور من أدواره كعمدة. أن يحمي القرية ويُفشي فيها الأمان والنظام. يصيح أن القرية ليس فيها من تهجم على النساء، لا هذه الأيام ولا قبل هذه الأيام. لا يوجد من يتهجم على النساء غير سومو. سومو الذي كاد يغتصب زوجة أخيه! سومو هو القاتل ويجب أن نقتله فورًا. البقال يؤيد العمدة. آبيسو وهِدْهِدو وسلفاي يؤيدون القتل السريع. أكثرية الحضور من رجال وشباب ونساء، يؤيدون القتل. لكن جانبًا قليلًا من الجموع بدأ يراجع نفسه، خاصة كبار السن. النفوس بدأت تهدأ والهدوء أخذ يسود. العقول ستبدأ في التفكير. في نفس الوقت بدأ سومو يعود إلى وعيه، لكن جسده منهك تمامًا من قسوة الضربات التي نالها، ومن الدماء التي تنزف من طعنه بالرمح. قال الكاهن:

ـ لنربط سومو بالحبال. ونؤجل الحكم يوما وليلة. وصباح بعد الغد نحكم عليه بما نرضاه.

العمدة ثار ومعه البقال. آبيسو وسلفاي وهِدْهِدو أصواتهم ارتفعت صارخة مطالبة بالقتل السريع لسومو. صراخ أم القتيلة طالبة القصاص السريع. أبو القتيلة تهجَّم على سومو المُمدد أرضًا وأخذ يركله، وسومو ليس به أي عافية للدفاع عن نفسه. أبعدوا أبا القتيلة. وبصعوبة تمكن رجل من الإمساك بهِدْهِدو، قبل أن يعاود طعن سومو بحربته. تمكن بعض الشباب من الهجوم على سومو

وضربوه بالعصي وركلوه، وكادوا يستكملون قتله، لولا تدخل عدد من الرجال، لكن لن يستطيع أحد إيقاف نيران الغضب المتصاعدة، والمُصرَّة على قتل سومو. الكل بدأ يستمع لصيحات أبي القتيلة المتصاعدة برأي جديد:

ـ ابتروا عضو القاتل. أخصوا عضو القاتل. هذا أقل ما يبرد نيران حسرتي على ابنتي تيماتي الجميلة.

الأغلبية الذين كانوا يطالبون بقتل سومو، وافقوا على هذا الرأي القاسي. فالإخصاء لشاب وصل لعمر السابعة عشرة من عمره، مقصود به الإهانة والتحقير. ونهايته في الغالب أن الشاب المخصي سوف يموت. لم ينتظر الشباب موافقة كبار السن. لم يأبهوا بمعارضة الكاهن، وتحذيره بأن الآلهة لا تقبل إخصاء الرجال، فهذا جُرم بشع مرفوض. تحمسوا للرأي، خاصة أن العمدة والبقال وافقا على قصاص الإخصاء. نفس الأربعة الذين حملوا سومو من قبل، تقدموا وحملوا سومو الذي لا يمتلك أي مقاومة. أسرعوا به وخلفهم كل القرية حتى النساء والأطفال، حتى أم القتيلة وأبوها. في المقهى فوق منضدة طويلة، سطحوا سومو على ظهره. أمسكوا بذراعيه وساقيه. نصفه العلوي عارٍ، انتزعوا مئزره المغطي لنصفه السفلي. سومو يتأوه ولا يملك إلا قول:

ـ أنا لا. أنا لا. أنا قتل تيماتي لا.

توالى على رأس سومو وجسده عدد من ضربات كعوب السيوف والحِراب والعصي. فكاد يغمى عليه مرة إضافية. الشباب الأشداء يمسكون بذراعيه المفرودتين على كامل امتدادهما. وهكذا ساقاه منفرجتان وكل ساق عليها ثلاثة من الشباب ليمنعوه من ضم ساقيه.

سومو لا يعرف ماذا سيفعلون به! يسأل بسذاجة بصوت ضعيف لا يسمعه أحد. يسأل عن جدته رهيسة وهل هي بخير، أم جرى لها شيء؟ رفع رأسه ينظر لماذا يمسكون بساقيه. رأى آبيسو يتقدم بخنجره وأمسك بعضوه. عرف ما سيكون. صرخ:

ـ لا. لا. حرام. حرام. آبيسو حرام.

ولم يرحمه آبيسو وقطع العضو في لمحة، والجميع يصرخ فرحًا مستلذًا بتنفيذ البتر البشع. سومو في ثورته وألمه الفظيع، يزلزل الممسكين به بتشنجاته وانتفاضاته. مارد مُصاب هائج. يحرك ذراعيه رغمًا عنهم. يقوم بجذعه صارخًا. يخاف الكل ويبتعدون من حوله، حتى من كانوا ممسكين بساقيه، الكل هرب خارج المقهى. يقف سومو عاريًا لاعنًا، وإن كانت دماء رأسه وصدره قد هدأتا، فإن دماء البتر الجديد البشع تنهال كالفيضان. يطيح بالمناضد والمقاعد في جنون. ينظر لمكان عضوه، لا يرى عضوه، يرى الفراغ والدماء تنزف بغزارة. يبكي. ينظر أرضًا باحثًا. يلتقط عضوه وينظر إليه مندهشًا غير مصدق. يخرج من المقهى ملوحًا به للمبتعدين عنه والدماء تسيل لترسم على الرمال خطًا أحمر ثقيلًا يتبع صاحبه. وقبل أن يهجم سومو عليهم يقع ويغمى عليه بين الحياة والموت.

الجريوت العجوز وتاجر البن، كانا قد غابا عن الجموع. ذهبا إلى بيت الجريوت وأعدا ما تحتاجه الجريوت، ثم أسرعا لمكان الجريمة. تاجر البن يحمل وعاء ماء، والجريوت تحمل وعاءً صغيرًا ذا مقبض خشبي. الجموع تقترب في حرص من سومو. تاجر البن والجريوت شقا الزحام وانحنيا بجوار سومو المغشي عليه. سكب تاجر البن الماء على مكان العضو المبتور. ثم سكبت الجريوت

السمن المغلي على الجرح من الوعاء الصغير. من فمها أخذت عود قش نحيف قصير، وبحرص رشقته في فتحة بول سومو. فرش تاجر البن الملاءة التي يحملها. وأتى من أشفقوا على سومو ووضعوه برفق على الملاءة. وحملوه متجهين إلى بيته. عدد قليل من ناس القرية يسيرون خلف سومو مشفقين عليه. وقبل البيت تخطوا جثة رهيسة. مددوا سومو على سريره، وانفضوا فيما عدا الجريوت وتاجر البن، الذي تكفل بإرسال كل ما سيحتاجه سومو حتى يشفى أو يموت.

القرية بدأت تفيق من حالة الانتقام المجنون الذي اعتراها، والتي انتهت بإخصاء سومو. وبدأ التساؤل لماذا لم يظهر كمالو ابن العمدة طوال هذه الأيام الصعبة؟ فقيل إنه محموم! ولم يظهر كمالو إلا بعد أيام وفي بيته ليلًا، وتحيط به إضاءة خفيفة. ورغم أن أغلب القرية ما زالت تعتقد أن سومو هو القاتل، فإن التساؤلات والشكوك لم تتوقف. القرية لا تتوقع أن يفلت سومو من الموت. شاهدوا غزارة الدم. شاهدوا سومو يسقط مغشيًّا عليه. شاهدوا بركة الدماء التي بقيت بعدما حملوه لبيته. لن يفلت سومو من الموت. وشاهد البعض كاهنهم وهو يتلو دعوات تهدئ من غضب الآلهة على تلك الجريمة النكراء.

مرت أيام الحمى. وعبرها سومو ونجا بأعجوبة من الموت. بدأ يعي ما حوله، وتذكر كل ما حدث. تعرف على الجريوت، وعلم أنها تعالجه وتشفق عليه. سأل أول ما سأل عن جدته رهيسة. صارحَته الجريوت بأنها ماتت. بكى بكاءً مرًّا. وكل تساؤلاته تعجبًا عن سبب كل ما جرى له ولجدته. يؤكد للجريوت أنه لم يقتل تيماتي. الجريوت تصدقه وتؤكد له أن القرية ستعلم وستوقن أنه لم يقتل تيماتي، لكن عليه الصبر، الصبر حتى يبرأ من جرحه، والصبر حتى تفيق القرية من

جهلها وتتبين أن سومو بريء، وتبحث عن القاتل الحقيقي. طاوعها واقتنع بأن عليه أن يتقوى بالغذاء، ليعيش وتعلم القرية أنها ظلمته، وأنه ليس القاتل. تناول حساء اللحوم، وبعض المشروبات العلاجية. ثم قطعًا صغيرة من اللحوم، وجرعات لبن. وبعض الفاكهة. ثم سحبت الجريوت عود القش الذي وضعته في مجرى بوله حتى لا ينسد. سومو يصرخ ألمًا وهو مستسلم للجريوت.

العمدة وزوجته في رعب. كمالو لا يستطيع الخروج من بيته. آثار جروح أظافر تيماتي القتيلة ما زالت باقية، وفي نفس الوقت الجبن يعتريه أن يوجه له أحد نظرات اتهام. سلفاي الأعرج يأتيه كثيرًا ويحكي له عن أحوال القرية، ويطمئنه أن الجميع ما زال يتهم سومو بالجريمة، ثم يطالب العمدة بقِطع ذهبية ليبدأ في التحضير لبناء بيته الموعود، انتظارًا لزواجه المأمول. أعطاه العمدة مضطرًّا، فرقبة ابنه كمالو تحت مقصلة كذبة سلفاي.

الجريوت زارت أم تيماتي. لم تحادثها عن براءة سومو. طالبتها هي وزوجها أن يتضاجعا رغم قسوة مصيبتهما. طالبتهما بالأمل في إنجاب تيماتي الثانية. رغم بكاء أم تيماتي ودهشة زوجها من هذا الطلب، وآثار المصيبة ما زالت مشتعلة، أصرت الجريوت على طلبها. وزارتها ثانية وثالثة ورابعة حتى بدآ في الموافقة.

تاجر البن والكاهن قاما بزيارة سومو عدّة مرات. شجَّعاه وساعداه ليسير خطوات قليلة داخل البيت. سَيره مؤلم. ساقاه متباعدتان. الجرح لم يندمل تمامًا. التي بقيت معه في البيت هي الجريوت العجوز تشجعه، وقد اعتبرها سومو بديلا عن رهيسة. لم يخجل منها. كل يوم تضع دهانات على جرحه. أبلغته بغدر سلفاي الأعرج وكذبه،

والشكوك التي صارت مؤكدة على أن الفاعل كمالو ابن العمدة. وسومو يعرف أن من بتر عضوه هو آبيسو. سومو يردد:

ـ خمسة لازم موت: سلفاي الأعرج، كمالو ابن العمدة، العمدة، آبيسو، هِدْهِدو.. خمسة لازم موت.

الجريوت تطالبه بترك الانتقام للآلهة، فالتقط سومو كلمتَي الانتقام والسماح منها وصار يرددهما. الانتقام لازم. سماح لا. حين يهدأ سومو قليلًا وتنفرج أساريره، تحكي له بعض حكايات الأسلاف، تحكي له عن تخصصات الآلهة وأدوارهم، وعن حركاتهم المنقوشة في الكهوف، ومغزاها. يسألها عن بعض ما عرفه من الكاهن، تشرح له في حكي بسيط يعجبه ويزيده اندهاشًا.

في صباح يوم خرج سومو من بيته عاريًا تمامًا. شعره مُهوش ولحيته وشاربه في توحش. سار حول البيت وعاد. بعد أيام ارتدى مئزره وسار حول البيت وذهب لممر الصعود للأسلاف. أسرعت له الجريوت تشرح له أنه لن يستطيع الصعود لكهوف الأسلاف كما كان يفعل، فجرحه ما زال لينًا وعافيته ما زالت واهية. عليه أن ينتظر شهرا وبعدها يفكر في الصعود للكهوف التي أحبها ويحب أن يبقى فيها كثيرًا. قال لها في أسى:

ـ قرية هذه. قريتي لا. أحبها لا. أمي أبي ماتا. جدتي رهيسة قتلوها. سلاسو ذهب. قرية هذه. قريتي لا. قرية هذه.. أنا أكرهها.

لما ظهر العتاب على وجه الجريوت. استمر سومو:

ـ أنا أحب الجريوت. أحبك. أنا أحب تاجر البن. وأحب الكاهن والصبي. الباقي لا. أنا أكره الباقين كلهم. انتقام لازم. سماح لا.

كل الباقين لن يسامحهم، وسيطلب من الآلهة أن تساعده على الانتقام من سلفاي الأعرج وآبيسو وكمالو ابن العمدة والعمدة نفسه. ثم الانتقام من القرية كلها.

كمالو ظهر بين الناس ليلًا. تتمعن فيه العيون لترى ما تريد أن تراه. ورأت بالفعل آثارًا وإن كانت باهتة، الآثار أوضح تحت عينيه. يعود كمالو لبيته باكيًا مرعوبًا، الناس بدءوا في الارتياب فيه. العمدة رفض إعطاء سلفاي أي قطعة ذهبية إضافية، يكفي ما أعطاه إياه ليبني بيته وإن كان السقف لم يُستكمل بعد، قال لن أعطيك ما وعدتك به، إلا بعد أن تتأكد القرية من أن سومو هو القاتل، ولا شك في قاتل آخر، ولا تحاول أن تهددني يا حقير. فإن أُدين ابني، فأنت أيضًا ستُدان بالكذب وتنفضح. ولتعلم أيها الحقير.. إن قُتِل ابني، فسأقتلك أنا وبيدي.

أعدت الجريوت لسومو كل ما سيحتاجه من مأكولات وفاكهة وبن ومياه وغيرها. قامت بحلاقة لحيته وشاربه تمامًا، فالآلهة تحب ذلك. وقبل أن يخرج سومو من البيت احتضنها شاكرًا لها. قالت:

ـ عليك بشكر تاجر البن. فهو الذي تكفل بكل ما احتجت إليه من علاج وطعام وشراب طوال فترة مرضك. وهذه الأشياء التي معك، هي من تاجر البن. وتاجر البن متأكد أنك بريء، وأن القرية ظلمتك ظلمًا بشعًا.

الدموع هطلت من عينَي سومو. عاد واحتضن الجريوت. ثم حمل الكيس وقِربة المياه وخرج متجها للممر، ساقاه منفرجتان، فجسده لم يعد بعد لقوته المعروفة. الجريوت تتابعه في حنان جدّة محبة مشفقة.

الآلهة تحتضن سومو البريء

سومو بمئزره الملفوف على نصفه التحتي. على كتفه غَلَق خوص ممتلئ بما يحتاجه. يصعد ممر جبل الآلهة. يصعد في هدوء معطيًا ظهره للقرية التي ظلمته ظلمًا بشعًا. معطيًا واجهته للأمام ولأعلى حيث سيلتجئ للآلهة التي أحبها من صغره، والتي سيطلب منها معاونته للانتقام ممن تسببوا في بتر عضوه، ثم من القرية كلها. يصعد وهو يردد:

- قرية ظُلم. قرية ظُلم.

في كهوف الآلهة بقي أسبوعًا كاملًا. يتمعن في تماثيل الآلهة ورسوماتها. يتمعن في الكتابات المقدسة التي لم يفك شفرتها أي من سكان القرى. الكتابات المقدسة مات من يعرفونها من أزمان بعيدة. سومو يأكل مما أتى به ويعد القهوة على النار التي لا تنطفئ. ثم يهبط للقرية ولا يحادث أحدًا. يردد فقط:

- أنا لا. أنا قتل تيماتي لا. أنا أحب تيماتي. سومو قتل تيماتي لا.

من يسمعونه يصدقونه. هذا الأبله لا يقتل. هذا الأبله ظلمناه. فمن القاتل إذن؟ هل هو...؟ لم يجرؤ أحد منهم أن ينطق الاسم المشكوك فيه.

يذهب للجريوت فتأتي معه لبيته. يوم واحد تعد له ما سيحتاجه في الأسبوع التالي. تحلق له ذقنه وشاربه وتلملم شعث شعره. ثم يودعها

ويصعد لجبل الآلهة. وهكذا مضت ثلاثة أشهر. في هذه الشهور تعبَّد للآلهة بقلبه النقي ونفسه الحزينة المصدومة بما فعلوه بجسده، وبقتلهم لجدته رهيسة. تلقى إيحاءات الآلهة وأنها قريبة منه. أحست به لأنه أحس بها عميقًا. وإن لم يفهم بعقله الطفولي، فقد أدرك بقلبه مبتغاها. عايشها فعايشته. فكان صحوه تقربًا منها، ونومه تواصلًا معها، تأتيه وتجالسه وتحكي له عن نفسها ببساطة. فهي تحكي لطفل وإن كان هائل الجسد. فعَلم ما تحوي الكتابات المقدسة بدون أن يقرأها، فقد سمعها من أفواه الآلهة نفسها.

وفي ليلة قمرية، حكى له الكاهن القديم حكاية شباب الأضاحي الذين يقفزون من منصة القفز للهاوية، حيث ينتظرهم في الأسفل حوض العظام المرصود. من أزمنة جد قديمة. قبل احتفالات الحصاد وقبل ليلة الجريوت، كان يتم اختيار فتى جلد يتمتع بالوسامة المطلوبة، ليكون الضحية البشرية التي يقدمها ناس القرية والقرى المجاورة، قربانًا للآلهة، فترضى عنهم وتبارك في حصاد موسم البن. يعدون للشاب ملبسًا ملونًا أنيقًا. وجسده كله مدهون بالزيوت الطيبة. حليق الذقن والشارب. وشعره مدهون وجدائله لامعة. تناول طعامًا خفيفًا وشرب قدرًا من الخمر.

في منتصف الليل يتجه الشاب المختار من المعبد الصغير إلى جبل الآلهة. خلفه عدد من الكهنة وكبار ناس القرية من رجال ونساء، بما فيهم عائلته، أمه وأبوه رغم آلامهما، فهما راضيان بأن يكون ابنهما ذاهبًا للآلهة، وسيرضون عنه ويقدمون له الخير الكثير، أما هما، فستعوضهما الآلهة بمن هو خير منه. تراتيل وطبول. وعند الممر تتخلف عائلة الشاب الضحية. يصعدون حتى القمة. وهناك تتم مباركة الشاب الضحية، بواسطة كهنة المعبد الكبار. في الفجر

يخلعون ملابسه منه. يتناول من الخمر المقدسة. يتقدم الشاب عاريًا لحافة الهاوية، على قدر من السُّكْر وقدر كبير من الحماس. يقف على نهاية الرخامة البيضاء الملساء، ويقف خلفه الكهنة مستمرين في تراتيلهم ممسكين بالمباخر التي تتصاعد منها أدخنة طيبة، مع ضربات خفيفة من الطبول. ومع أول شعاع شمس يزيد الكهنة من سرعة تدفق تراتيلهم، وترتفع ضربات الطبول. لحظات يشتد ضوء الشروق فيتوقف الكهنة عن التراتيل فتتوقف الطبول. يقفز الشاب الضحية في الهواء راضيًا فيسقط متقلبًا في الهواء حتى يصل للقاع، حيث الحوض الحجري، يرتطم بعظام من سبقوه. وبعد أن تأكل النسور لحمه، يبقى عظمًا منضمًّا لبقية العظام.

يسجد سومو للآلهة، يطلب مساعدتها في الانتقام من الذين قطعوا عضوه. قطع العضو في شرع تلك الديانة أفظع من القتل. كاهن قديم يأتي مبتسمًا له. يمسح بكف يده على الحائط. يرى سومو قريته، ثم تيماتي وهي تتسلل وتبعها كمالو. كمالو وهو يخنق تيماتي، وسلفاي الأعرج وهو يتآمر لإلصاق جريمة القتل به! حاولت الآلهة إبعاد غريزة الانتقام منه، ووضع السماح، ففشلت. أفهمته أن نار الانتقام تكويه هو قبل أن تحرق ظالميه، لم يرتدع. فليس له مأرب في حياة بعد قطع عضوه وإذلاله أمام كل ناس القرية الظالمة.

آلام سومو من إهانته باتهام القتل وقطع العضو، آلام فظيعة، ويضاف عليها رؤيته لمشهد موت جدته رهيسة دهسًا تحت أقدام ناس قريته. ألح على التفاهم مع إله الغضب والانتقام، وثعابينه الملكية الأربعة، حتى وافقه إله الغضب والانتقام، وأمر الثعابين أن تؤدي انتقامًا واحدًا ضد من يقرره سومو.

ليلة ممطرة. القرية نائمة. فإذا بها تصحو على صوت قوي عميق يصيح، ثم صدى الصوت من جوانب الجبال، صدى عميق رهيب:

ـ قرية ظالمة. قرية ظالمة. قرية ظالمة. انتقام قريب.

استيقظت القرية على صوت سومو الهابط عليهم من جبل الآلهة. خوف عميق ضرب قلوبهم. وهكذا في اليوم التالي والذي يليه. وفي اليوم الرابع كان صراخ سومو مختلفًا:

ـ لازم انتقام. خمسة لازم موت: سلفاي الأعرج، كمالو ابن العمدة، العمدة، آبيسو، هِدْهِدو.. بعدين انتقام قرية ظُلم.

وفي اليوم الثالث، يقف سومو في قمة جبل الآلهة، الناحية المواجهة للقرية. وينادي ويحدد نفس أسماء الخمسة. وفي اليوم الرابع أيضًا. القرية صارت في انتظار الانتقام الذي لن يتأخر كثيرًا. الخمسة الذين تم تحديدهم لم يعد نهارهم عملًا، ولم يعد ليلهم سُباتًا. سومو صار رعبًا مقيمًا عليهم في كل لحظة، خاصة أن الكاهن العجوز صرّح بأن سومو من صغره قريب من الآلهة، وأن الآلهة لا ترضى بكل هذا الظلم الذي وقع عليه، وأنها لا ترضى بالإخصاء، فما بالكم إن كان الإخصاء قد وقع على شخص تحبه، وربما يكون بريئًا؟

لم يعد ناس القرية يقومون بعملهم بإتقان كما تعودوا. كل حواراتهم عن تهديدات سومو الأبله. الشك في أنه مظلوم يزداد انتشارًا، والشك أن القاتل كمالو ابن العمدة يزداد رسوخًا. فكمالو اختفى أيامًا بعد حادثة القتل، ثم ظهر ليلا في بيته والإضاءة باهتة، ثم ظهر نهارًا، ومن تمعن في وجهه رأى آثار خربشات أعلى وأسفل عينيه. سلفاي معروف بأحقاده وخسّته من طفولته. فيا هول ما فعلوا

بسومو الأبله. ويا هول ما ينتظرهم إن وافقته الآلهة على الانتقام من الخمسة، ثم من القرية برمتها!

الحر والرطوبة يجعلان كل ناس القرية ينامون بأقل وأخف الملابس. قماشة بسيطة خفيفة تغطي عورتهم. عائلة سلفاي على يقين أن سلفاي كاذب فيما قاله، عن مشاهدته لسومو وهو يهرب من مكان جريمة قتل تيماتي الجميلة. سلفاي لم يعد يستطيع النوم. الهلاوس تركبه كل ليلة. وعيناه تائهتان لا تستقران طوال النهار. لم يعد متحمسًا لاستكمال سقف بيته الجديد.

ليلة زادت كوابيس سلفاي فأيقظته عائلته. ضوء المصابيح الزيتية يلقي بأضواء باهتة في أرجاء البيت. اعتدل سلفاي على سريره يبكي بكاءً مرًّا، ويعترف بأنه كذب، وظلم سومو. أعطوه القليل من الماء البارد. شرب وتركوه ليعاود النوم، فاستلقى ولم ينم ولم يناموا هم. فهذه الليلة ليلة موسوسة وبها أمر ما غريب. أحاسيس مبهمة متوترة تنتفض داخل أرجاء البيت. وفي نفس هذه اللحظة كان سومو في الكهف الرئيس أعلى قمة جبل الآلهة. النار تتوهج بغيظ وهو عارٍ يقف أمام إله الغضب والانتقام، والثعابين الأربعة أمامه متأهبة لأوامره. يشرح سومو بكلمات طفولية باكية، وبهمهمات آلام تصدر منه تتواصل بأعمق وأفصح من كلماته الضعيفة. ثعابين الكوبرا تحركت وزحفت خارجة من الكهف ثم اختفت.

ثعابين الكوبرا الأربعة في المعبد الصغير، تهتز وتدب فيها الحياة. تهبط من الجدار. تخرج من باب المعبد. تزحف على الرمال متجاورة. تتفادى البيوت متجهة لبيت عائلة سلفاي. رءوسها الصغيرة وجانب من رقبتها، تعلو على الأرض قليلًا. رءوسها مرعبة. ألسنتها المشقوقة

تنطلق من أفواهها وتعود في سرعة مرتعشة. ضلوع رقبتها انتفشت على الجانبين فأعرضت. ولما مرت من تحت باب البيت ودخلت رأتها العائلة، ففزعت وانخرست ألسنتهم. سلفاي راقد على ظهره يتشنج متأوهًا. الثعابين الأربعة اتجهت إلى سريره. كل ثعبان يصعد على قائم من القوائم الأربعة. صعدت إليه ورفعت رأسها ورقبتها شبرين وفتحت أفواهها. شاهد سلفاي الاثنين اللذين على يمينه وشماله. فما الثعبانين مفتوحان على آخرهما. باطنهما أحمر ناري. والنابان العلويان ظاهران. أعين الثعبانين تبث رعبًا مُركزًا رهيبا. تركزان نظراتهما على رقبته وصدره. لم يستطع أن يصرخ ولا أن يتحرك. أربعة ثعابين فتحت أفواهها على اتساعها وضربته ضربات سريعة، كل ضربة بعضّة بالأنياب الملتوية، تبث السم المُركز في رقبته وفي صدره وبطنه وساقيه. ينتفض وكأن زلزالًا يضربه من داخله. ثم همد جسده. الثعابين تعود خارجة من البيت. عائلة سلفاي تشاهدها في صمت ورعب حتى خرجت. لم يجرءوا على الذهاب إلى سرير سلفاي، حتى مر وقت طويل. ذهبوا فإذا بسلفاي عبارة عن جسد مجفف أصفر كركمي. وجهه مفزوع، فمه مفتوح لآخره يسيل منه دم أصفر، وعيناه جاحظتان وقد تجمدت فيهما دمعات صفراء.

صوت سومو الأبله من قمة جبل الآلهة يصيح وتسمعه القرية كلها:

-واحد راح. واحد مات. انتقام تالي أربعة. انتقام تالي قرية ظُلم.

تُرى على مَن الدور؟ هكذا تفكر القرية الظالمة. سومو بريء. يعلمون القاتل وبيت القاتل وسطوة أبي القاتل. يعلمون أن سلفاي الأعرج كذب ونال جزاءه المؤلم. فمن يكون التالي: كمالو ابن العمدة؟ العمدة؟ آبيسو؟ هِذْهِدو؟ كمالو وأبوه وهِذْهِدو، لم

تتطرق إلى قلوبهم شعرة من ندم. هِدْهِدو بدأ يلعن كمالو لأنه قاتل أخته الحقيقي، وليس سومو، لكنه لم يندم ولم يتأسف على ما فعله بسومو. آبيسو هو الوحيد الذي يلومه ضميره على تسرعه، وعلى قطعه عضو سومو. ورغم هذا لم يواجه ناس القرية بندمه، ولم يقل علنًا إن القاتل هو كمالو. وفي الوقت نفسه استسلم تمامًا وانتظر انتقام سومو الرهيب به.

العمدة لن ينتظر حتى يتم قتل ابنه بطريقة وحشية كما تم قتل سلفاي الأعرج. انتقى أحد أتباعه، معروف برمي السهام. أغراه بالمال. عليه أن يتسلل ليلًا إلى قمة كهوف الآلهة. عليه أن يطلق سهمًا مسممًا على سومو ويقتله. بعدها سينال رضاء العمدة، ومع رضاه سينال ذهبًا وأرضًا واسعة يزرع فيها البن.

لم تمضِ ليلتان على مقتل سلفاي. القمر يكاد يستكمل نفسه بدرًا. تسلل رامي السهام حتى وصل لقرب القمة. لم يجرؤ على الاقتراب أكثر. يراقب وضَوء البدر يساعده. سومو يجلس على حجر وينظر إلى المساحة الفضائية التي أمامه. يتمتم بكلمات غير مفهومة. أعد الرجل قوسه وسهمه المسموم. هدفه هو ظهر سومو. أطلق السهم وسومو يقف لأمر ما. السهم صفَر في الجو ورشق في فخذ سومو من الخلف. صرخ سومو والتفت، شاهد خيال الرجل وهو يهبط هاربًا. لحظات وسومو يصرخ وينزع السهم من فخذه بصعوبة. أسرع يطارد الرجل الهارب، فلم يلحق به. عاد متألمًا وفي نومه أحس بساقه تسخن وتسخن، أدرك أن السهم مسموم. في الصباح الباكر، على حافة القمة ناحية القرية نادى:

- جريوت. جريوت. جريوت.

هبط للقرية. دخل بيته. كانت الجريوت في انتظاره. رأت الجرح وعرفت أنه مسموم. أتت له بما تستطيع من علاج. بقي يومين متعبًا مرهقًا. أتاه الكاهن العجوز يستفسر منه، وعرف من سومو أن الآلهة تأتيه كأشباح وتلقنه بعض أسرارها، وأنها حكت له بعض ما هو منقوش في جدران معابدها. أتاه تاجر البن، هو والجريوت والكاهن حاولوا إثناءه عن الانتقام. قالا له إنهم سيكونون من ضمن مَن سيضارون أو يُقْتَلون، فكان رد سومو:

ـ اهجروا القرية الظُّلم.

الكاهن قال له، إن سلسلة الانتقام والقتل ستنتهي بك! إله الغضب والانتقام، لا يقبل بالتمادي في الانتقام، سيجعلك أنت آخر المُنتَقم منهم. قال سومو إن الكهنة القدامى سبق وأن قالوا له ذلك، وإنه موافق على الموت حسب ما يحدد له إله الغضب والانتقام.

ليلة واحدة بقي فيها ببيته، وصعد للقمة التي ارتضاها سكنًا. صعد وهو يدرك أن السم لن يبارح جسده، أن السم قاتله في أيام معدودات. هكذا أكدت له الجريوت: أيامك معدودة يا سومو.

لم يضيع سومو الوقت. في نفس الليلة ركز على الانتقام وقد عاد الرقم إلى خمسة، خصم منهم سلفاي الأعرج، وانضم إليهم صاحب السهم المسموم. سهر أمام رسم لفيل قديم. يستحثه على مساعدته في الانتقام. وفي الليلة التي تليها وقف سومو على القمة ناحية القرية صائحًا:

ـ الفيل القديم قادم. يا صاحب السهم المسموم. الفيل القديم قادم.

وفي منتصف الليل استيقظت القرية على زئير فيل يرج البيوت. خرج الناس من بيوتهم. الزئير آتٍ من أعلى المصعد الرملي، حيث

كانت الغابة القديمة. الزئير يقترب ثم ضربات أقدام الفيل على الأرض، يحسون بها تقترب وتقترب. صاروا يجرون هنا وهناك لا يعرفون أين المفر، البعض أسرع ليحتمي بالمعبد الصغير، والمعبد لم يستوعب أكثر من خمسة عشر. الكثيرون دخلوا بين الأشجار الكثيفة والأحراش حيث تم قتل تيماتي. وهنا أظهر ضوء البدر شبح الفيل الضخم. الفيل يزأر ويلوح برأسه هنا وهناك وخرطومه يتطوح ونانا ه العاجيان يلمعان. ثم هبط عليهم وكأنه قطعة غامقة غامضة انخلعت من الجبل، وتدحرجت على القرية مُقررة وبإصرار أن تهدم القرية. الفيل الضخم يجوس بين البيوت، وإن احتك ببيت يسقط الجانب الذي احتك به. رامي السهم المسموم يجري هنا وهناك. يذهب هنا هاربًا فيجد الزئير أمامه. يعود لهناك فإذا بالزئير أمامه! لا يعلم إلى أين يهرب، أين يختبئ، مرعوب، واثق أن الفيل أتى له خصيصًا. أتى له وحده. وقد كان.. يجري لهنا فإذا بالفيل يدهمه ويطعنه بناب من نابيه، فيرشق الناب في بطنه ويخرج من ظهره. يرفع الفيل رأسه وصاحب السهم المسموم معلق في منتصف الناب الذي اخترقه. الفيل يجري به عائدًا حيث ظهر. وعند الأفق يهز الفيل رأسه بقوة فينسل جسد رامي السهم المسموم من الناب ويسقط بعيدًا جثة هامدة. ويختفي الفيل.

سومو على القمة يصيح:

ـ اثنان. اثنان راح. اثنان مات. انتقام اثنان. انتقام تالي أربعة.

وفي الليلة التالية بقمة كهوف الآلهة، سومو لم يعد لديه وقت. السم يتغلغل في جسده. وجسده القوي يقاوم. ونفسه الموتورة تصر على رفض الموت حتى يستكمل انتقامه مِن الذين أذلوه وبتروه، ثم من القرية كلها. أول عمل قام به رغم إعيائه، في بعض الأماكن

المطلة على منحنيات الممر. وضع أحجارًا متوسطة الحجم. إن حاول البعض الصعود لقتله ثم الهروب. من هذه الأماكن يلقي عليهم الأحجار، فتسقط عليهم وهم يسرعون، فإما تقتلهم وإما ترعبهم فيسقطون من الممر للهاوية.

الأربعة المرشحون لنيل الانتقام في حال متردية. ينهارون أكثر وأكثر كل لحظة تمر عليهم. آبيسو حاله مزرية مثله مثل من حُدّدت أسماؤهم وتوعدهم سومو بالانتقام، لا ينامون ليلا ولا نهارًا. والدور الآن على آبيسو. آبيسو أشباح من داخله تقول له: دورك حان فتأهب. لا يطمئنه أن والده يبيت معه في نفس سريره. تيقن أن الانتقام آت، أعصابه انهارت تمامًا، فهو الذي بتر عضو سومو بخنجره. إن رقد على سريره، فسريره يطير به فيفزع ويقوم صارخًا. أبوه يطمئنه، فيحاول النوم، فإذا به يهوي في قاعٍ مظلم أسفله أشباح تصيح فيه منتظرة سقوطه، فيفزع ويقوم صارخًا باكيًا.

في الكهف الرئيس سومو مستغرق في دعواته، دموع تبلل وجنتيه، توافقه الآلهة. يخرج خارج الكهف والكهنة القدامى خلفه يهمهمون. ينظر إلى السماء وسطوع القمر واضح. ينادي ظالمه أن يأتي حالًا، يكرر النداء آمرًا. آبيسو يعتدل من رقاده، يتخطى والده النائم بجواره، يتناول خنجره الذي قطع به عضو سومو، يخرج من بيته ويسير متخطيًا بيوت القرية، وكأنه أسير سحر قوي يقوده لممر جبل الآلهة. يصعد الممر هادئًا مستسلمًا حتى يصل للقمة حيث سومو الذي ينتظره، يقفان أمام بعضهما البعض. آبيسو في ضعف بدن واستسلام منهار، وسومو في ضعف بدن ونشوة نفس منتقمة. يمد آبيسو يُمناه حاملة الخنجر تجاه سومو، يرفض سومو أن يتناوله منه. يلقيه آبيسو أرضًا ويسير متجهًا ناحية منصة الأضاحي البشرية. سومو يسير خلفه وبعده تظهر

أشباح الكهنة المرتلين حاملين المباخر، وضربات الطبول الخفيفة تصاحب التراتيل. قبل أن يتقدم آبيسو للمنصة يخلع مئزره، يقف عاريًا على طرف الرخامة البيضاء الملساء. تتوقف التراتيل وتتوقف ضربات الطبول. آبيسو لا يقفز. ساقاه ثابتتان وجسده يميل للأمام ولأسفل فيسقط صامتًا في الهاوية ويرتطم جسده بعظام مَن سبقوه.

سومو على الحافة المطلة على القرية:

ـ ثلاثة. ثلاثة راح. ثلاثة مات. انتقام ثلاثة. انتقام تالي ثلاثة. انتقام تالي قرية ظُلم.

قام والد آبيسو فزعًا من صراخ سومو. لم يجد ابنه. بكى بحرقة. فالثالث الذي انتهى هو بالتأكيد آبيسو. قيل له إن أحدهم شاهد آبيسو يصعد لجبل الآلهة. مع أول ضوء للنهار، شاهدوا النسور تهبط من عليائها ناحية حوض العظام. نزلوا لأسفل، وجدوا جثة آبيسو والنسور تأكل لحمه.

العمدة لن ينتظر موت ابنه وموته. في غروب نفس الليلة، حشد ما لا يقل عن ثلاثين من الخائفين على بيوتهم، والمتأكدين أن الانتقام النهائي سيكون على القرية كلها. تسلحوا بالحِراب والسيوف والسهام والمشاعل وذهبوا لصعود الممر ليقتلوا سومو، يقودهم العمدة نفسه ومعه أتباعه الخمسة. العمدة آخر الصاعدين بحجة تقدمه في السن. المشاعل تفضحهم فاستعد لهم سومو، لم ينتظر أن يصلوا إليه. في مكان خطر والصاعدون بين جدار الجبل والهاوية، فوجئوا بأحجار تنهال عليهم فارتعبوا وتوقفوا أولًا، ثم عادوا للهبوط مسرعين دافعين بعضهم بعضًا. ووسط ضحكات سومو الغليظة المتشفية، وقع تحت الأقدام اثنان منهم، وتدحرج أحدهما ليسقط في الهاوية وهو ما زال

ممسكًا بحربته. عادوا في خزي وبعضهم أصيب بكسور. الذي سقط في الهاوية هو هِدْهِدو، سقط ومعه حربته التي طعن بها سومو من قبل.

سومو على الحافة المطلة على القرية:

ـ أربعة. أربعة راح. أربعة مات. انتقام أربعة. انتقام تالي اثنين. انتقام تالي قرية ظلم.

أم تيماتي حامل في أيامها الأخيرة. يواسيها زوجها. فها هو ابنها الوحيد هِدْهِدو يموت قتيلًا كما ماتت ابنتها الوحيدة تيماتي الجميلة من قبل. أملهما في داخل رحم الأم.. فهل ستلد تيماتي أم هِدْهِدو؟

ناس القرية في اضطراب، في رعب، في ضياع تام. الخوف من انتقام سومو، صار أكبر وأخطر عندهم من الخوف من العمدة. تجمعوا واتجهوا لمنزله في صباح سقوط هِدْهِدو ومقتله. خرج إليهم العمدة وخلفه أربعة من أتباعه بحِرابهم، وعدد من أتباعه ومنافقيه متواجدون. ناس القرية صارحوه بأن ابنه كمالو هو قاتل تيماتي الجميلة، وعلى كمالو أن يسلم نفسه لسومو، يفعل فيه سومو ما يراه جزاءً وفاقًا انتقامًا مما حدث له، ربما بعدها يوقف سومو سلسلة انتقامه، الذي سينتهي حتمًا بالانتقام من القرية كلها. صرخ العمدة رافضًا اتهام ابنه. اتهم المتجمهرين بالجبن والجنون. رد عليه بعض كبار السن بأنه الجبان وليسوا هم. شجار بالكلمات. العمدة ذكَّرهم بأن انتقام سومو ليس محددًا على الخمسة أسماء التي يرددها، فانتقامه يخص القرية كلها، القرية كلها شاركت في خصيه، القرية كلها قتلت جدته العجوز رهيسة. سومو لن يستكفي بقتل كمالو وأبي كمالو. تطور الحوار العصبي وكاد يصل للاشتباك بالأيادي والرماح. انسحب المتجمهرون وهم يتوعدون بعضهم بالشر.

في داخل البيت كمالو يراقب ما يحدث وجسده ينتفض خوفًا أن يقتحم المتجمهرون الثائرون البيت. خلفه يقف تابع العمدة المختص بالبقاء مع كمالو طوال الليل والنهار. وبمجرد انصراف الثائرين، أسرع كمالو إلى حجرة المطبخ. الحارس يسرع خلفه وقبل أن يمسك به، كان كمالو قد تناول سكينًا كبيرًا ورفعه ليطعن به قلبه، وقبل أن يهبط بالسكين على قلبه، توقفت يمناه. لم يستطع أن يستكمل قتل نفسه، أمسك به التابع. أعادوه لحجرته فجلس على سريره يبكي ويردد:

ـ سأقتل نفسي. سأقتل نفسي بيدي. بيدي لا بيدك يا أبله القرية.

الثلاثة حوله: الأب والأم والتابع. احتضن أمه مستمرًّا في بكائه، وأمه تواسيه، بكاؤها أغزر وأسخن من بكائه. كمالو نحافته غير معقولة. لا يأكل إلا بضغط من أمه. يتجرع جرعتين من حساء دافئ بعد محايلات ورجاءات من أمه. وإن أكل.. فشريحة من لحم دجاج مسلوق، شريحة حجمها لا يزيد عن عرض إصبعين. يتجرع بعض الخمر، ولولا أمه وأبوه لسكر تمام السكر، وحجّته أن يتقبل مقتله بدون إحساس بالألم ـ هكذا يقول هو ـ فتسمعه أمه وقلبها يتمزق حزنًا ورعبًا على وحيدها.

داخل معابد الآلهة سومو ملقى أرضًا وجسده يرتعش. آثار السم يزداد ضغطها في جسده. اعتدل بصعوبة. ينظر لتماثيل الآلهة:

ـ انتقام تمام. بعدين أموت. انتقام كمالو، انتقام عمدة.

لكنه لم يستطع أن يدعو، ولم يستطع أن يدخل في حالة الاندماج مع الكهنة القدامى والآلهة. ارتمى أرضًا وثِقل السم أخذه في غيبوبة.

كمالو يزداد انهيارًا. لا تأثير الآن يسقط عليه من قمة كهوف الآلهة.

إنها هلاوسه الخاصة. إنه الرعب من الموت البشع، إنه تفكيره.. كيف سيقتلني سومو؟ أسيأتي بي رغمًا عن أنفي لأقفز في الهاوية؟ هل سيرسل ثعابين العقاب الأربعة، لتقتلني بسمومها فأصير جثة يابسة مصفرة؟ كيف سيقتلني الأبله المجرم؟ العمدة في رعب من انتقام سومو، ورعب مضاعف من تضاعف ثورة ناس القرية. لا يأمن لأتباعه، فأتباعه يتبعونه لمنافع ينالونها منه، فإن رأوا أن الأضرار ستكون أكثر من منافعهم، فسيتخلوا عنه فورًا. إن كان تقديم نفسه لسومو، وسومو يكتفي بقتله ويعفو عن ابنه، لفكر في الأمر. لكنه على ثقة بأن قلب سومو صار معبأً بالانتقام والكراهية ولم يعد به فسحة من العفو والسماح.

اليوم كان كثيف الثقل على العمدة وزوجه، وأثقل خاصة على وحيدهما كمالو. وجود بناتهما الأربع وأحفادهما، لم يقلل من الخوف والرعب الجاثمَيْن على البيت، بل زادا مع بكائيات البنات وضوضاء الأحفاد. أمرهن العمدة بالعودة لبيوتهن مع أطفالهن. كمالو انهار تمامًا، ولم يعد به عقل يفكر ولم يعد يتحكم في نفسه. من بعد الغروب لم يعد يرى أحدًا وإن كان هذا الأحد أمامه يحادثه أو حتى يمسك بكتفيه، عيناه تدوران في محجريهما دوران المخبول التائه المخمور المسطول. يسير في حجرته كشبح مسجون، يصرخ:

- سومو. سومو سيقتلني. سومو سيأتيني الليلة. الدور عليّ أنا. سيقتلني الأبله. ترى.. كيف سيقتلني سومو؟ كيف سيقتلني سومو؟

الأم تتابع ابنها وتلطم خديها. ابنها يصرخ صرخات ملتاثة. صار في حالة الجنون لا شك في ذلك. اضطر والده أن يمسك بابنه ويدفعه

إلى سريره ويلقيه عليه. يمسك بيديه، والتابع المخصص لكمالو ترك حربته ليمسك بساقيه. كمالو ينظر للسقف ويصيح:

- سومو.. أنا أراك. أنا أراك تأمر ثعابين الانتقام بأن تأتيني. أرسلها بسرعة، بسرعة. أريد أن أموت وأستريح. سومو أيها الأبله. أنا أراك. أنا أكرهك. سومو.. أريد أن أقتلك. سومو.. سومو.. سومو.

أغمي على كمالو. فتركوه على سريره. الأم ذهبت لإحضار بعض الحساء، فربما تناول ابنها جرعة أو اثنتين، العمدة جالس بجوار ابنه يمسح دموعه، والتابع يقف قريبًا ممسكا بحربته. يفيق كمالو ويفتح عينيه ناظرًا للسقف حيث يرى سومو وهو يدعو الآلهة أن تنتقم من كمالو. يحاول كمالو أن ينهض، يسرع العمدة ليساعده على رفع جذعه. كمالو ينظر لمن حوله، يحاول الوقوف. ترك التابع حربته مائلة على السرير ليساعد العمدة في إنهاض كمالو. وقف كمالو. الرمح المسنود على سريره أخذ انتباهه. كمالو الضعيف الذي لا يكاد يستطيع النهوض من سريره إلا بمساعدة من حوله، تحول إلى فتى حيوي عنفواني. خطوة واحدة وأمسك بالرمح وأسرع بعيدًا عن أبيه وتابعه. وقبل أن يتحرك الأب والتابع، بدَّل كمالو مسكته للرمح. يداه خلف سن الرمح ووضع السن باتجاه قلبه. الأب يتقدم منه، فصاح كمالو:

- أبي، قف مكانك، إن تقدمت مني فسأغرس الرمح في قلبي.

الأب في رعب، والتابع لا يعرف كيف يتصرف. كمالو يقول لأبيه:

- أقتل نفسي وأستريح، ولا أترك الفرصة للأبله أن ينتقم مني.

الأب يقول له:

ـ كمالو. لا تفعل. الأبله سيموت مسمومًا بين لحظة وأخرى. لا تتهور يا بني.

كمالو عدل وجهته ناحية الجدار البعيد. الرمح أفقي السن يشير لقلب كمالو ومؤخرته تشير للجدار البعيد. صاح كمالو صيحة إصرار واندفع في خطوات سريعة تجاه الجدار البعيد. هي خطوات قليلة ووصلت مؤخرة الرمح للجدار واندفع كمالو بكل قوته وسن الرمح على قلبه فاخترق السن قلبه وظهر من ظهره أحمر قانيًا. سقط كمالو أرضًا على جانبه والرمح مرشوق فيه. التابع يصرخ والعمدة استند بيده على سرير ابنه وجلس ممسكًا بقلبه ثم استرخى جسده، ومال على السرير ولم ينطق بعدها ولم يتنفس.

الشروق.. وسومو يقف على الحافة تجاه القرية. سومو يجلس فلم يعد يستطيع الوقوف. صاح بآخر كلمات ينطقها في حياته:

ـ انتقام خمسة خلاص. انتقام قرية ظُلم غدًا.

لم يسمعه أحد. فصوته ضعيف. وجسده خائر تمامًا. لن يعيش سومو لنهاية النهار التالي. عيناه صارتا في حمرة الدم. قطرات دماء تسيل من فتحتَي أنفه. صار باطن فمه متخشبًا ولسانه عييًا لا يساعد في نطق كلمة واحدة. سار حبوًا على ساقيه ويديه ورأسه لأسفل، صدره يحشرج. دخل الكهف الرئيس، جلس أمام تماثيل الآلهة، يناجيها بقلبه فلا صوت له. طوال الليل يناشد ويرجو ويتوسل. كل ما يستطيعه من حراك، أن يتحرك جذعه يمنة ويسرة. عيناه الحمراوان تذرفان الدموع.

وانتهى الليل ووافقته الآلهة. الظلم عليك كان فاجرًا، وانتقامك أكثر فجورًا. ما كان من إخصائك أشعل غضبنا على القرية الظالمة،

لذا تستحق القرية العقاب الذي تطلبه. فجر اليوم ستهجم وحوشنا القديمة على القرية وتبيدها وتجعلها أطلالًا.

في نفس الوقت الذي وافقت الآلهة على انتقام سومو، كانت توحي للجريوت بالحل. فأعدت ما ستحتاجه في كيس قماش. أسرعت الجريوت أولًا إلى المعبد الصغير. ثم إلى بيت تاجر البن وطالبته بإحضار قِربة مليئة بالمياه. الثلاثة أسرعوا إلى أم تيماتي، كانت ترضع رضيعتها التي أنجبتها من أيام، وأطلقت عليها تيماتي الثانية، كما طلبت الجريوت من قبل. قالت الجريوت لها:

ـ القرية ستباد صباح الغد. والنجاة لن تكون إلا بمعاونتك.

الكاهن وتاجر البن أيدا رأي الجريوت. تتعجب الأم ويتعجب الأب. كيف يكون الإنقاذ بهذه الرضيعة التي لا تعي ما حولها، ولا تملك غير الصراخ طلبًا للرضاعة؟! قالت إن صعود جبل كهوف الآلهة صعب عليها. فقال الكاهن إن الصعود صعب علينا نحن أيضًا، لكن لا بد مما ليس منه بد. .القرية ستباد بما فيها أنتِ ورضيعتكِ تيماتي الثانية.

يصعدون الممر بصعوبة شديدة. خطوة خطوة. الكل في إرهاق، وبخاصة أم تيماتي وكبار السن المرافقون لها. زوجها هو الذي يتقدمهم، فسنه متوسطة وعافيته معقولة. وصلوا للقمة، تقدمهم الكاهن ناحية الكهف الرئيس. ضوء القمر يدخل الكهف. سومو بشعره الأشعث ولحيته النامية وشاربه الذي هبطت أطرافه لتغطي شفته العليا، يجلس أمام تماثيل الآلهة وجذعه يتمايل ببطء يمنة ويسرة. مجلسه أقرب لإله الغضب والانتقام. شفتاه تتحركان ولا صوت يخرج منهما. أحس بمن أتوا، نظر ناحيتهم، عرفهم، عاد لما

هو فيه. الجريوت تحادثه. تطالبه بأن يرفع انتقامه من القرية، يكفيه مَن قتلهم. لقد انتقم ممن قطعوا عضوه ومن الذين حرضوا عليه. عليه أن يرفع انتقامه من ناس القرية ويعفو مسامحًا. يهز سومو رأسه رافضًا. يلح عليه الكاهن وتاجر البن. لا فائدة. تمد الجريوت يديها وتأخذ تيماتي الصغيرة من أمها، تتقدم أمام سومو فتكون بينه وبين إله الغضب والانتقام. تعري الطفلة من قطعة القماش التي تحويها، تمد ذراعيها حاملة الطفلة العارية وتعرضها أمام ناظري سومو. تقول:

ـ هذه تيماتي الثانية. هذه تيماتي الجميلة التي كنت وما زلت تحبها. هل ترضى بأن تموت تيماتي الثانية، كما ماتت تيماتي الأولى؟! تيماتي الأولى قتلها كمالو. وكمالو وأبوه العمدة ماتا. هل تريد أن تكون قاتل تيماتي الجميلة الثانية؟

الدموع تسيل من عينَي سومو وهو يهز رأسه رافضًا أن يكون قاتلًا لتيماتي الثانية. مد ذراعيه فناولته الجريوت الرضيعة. قربها من وجهه وقبَّل رأسها وأعادها إلى الجريوت، فأعادت الجريوت الطفلة لأمها. قالت لسومو:

ـ اطلب من الآلهة إيقاف الانتقام من القرية.

ينظر سومو للجريوت. يريد أن يتحدث ولا يستطيع. يشير بإصبعه ناحية الجدار.. مساحة منه صارت بيضاء، تظهر فيها خلفية القرية. المرتفع الرملي العريض. سكون ثم أصوات بعيدة لوحوش مرعبة، ثم ظهور الأفيال القديمة والخراتيت الهائلة وبقية الوحوش. أعداد كثيرة منها تقف وتزأر على القرية. ومع شروق الشمس تهجم على القرية لتقتل ناسها وتهدم بيوتها. ثم يختفي المشهد ويعود الجدار كما كان. أم تيماتي وأبوها يبكيان على ما سيكون على القرية.

الجريوت تقول لسومو:

- أعرف ما سيكون. المطلوب منك أن تغفر، وأن تسامح وتدعو الآلهة أن ترفع غضبها وتوقف انتقامها. سامحنا يا سومو، سامح قريتك. سومو.. علينا أن نودعك حالًا فالفجر على وشك.

يضع سومو يده على كتف الجريوت ويجذبها ناحيته. الجريوت تقرب أذنها من فم سومو. فيهمس لها بما يريد. صوته غاية في الضعف. لم تسمعه جيدًا، لكنها تفهم مقصده. دموعها تسيل. تلف ذراعها حول رقبة سومو وتُقبل رأسه. تُخرج ما تحتاجه لحلاقة شعر سومو ولحيته وشاربه. برفق ودعوات بالرحمة له وللقرية تنهي عملها. تأخذ قِربة المياه من تاجر البن وتسكبها على رأس سومو وتدعك جسده، ثم تجهز له شعره، أخيرًا تقبل رأسه راضية.

يتركونه ليهبطوا من حيث أتوا. وهم يسيرون في اتجاه بيوتهم، سألوا الجريوت، ماذا قال سومو لها فبكت. قالت:

- شرط إله الغضب والانتقام. إن أصر سومو على الانتقام من كل ظالميه، فسيساعده في مطلبه، لكن سيكون هو الضحية الأخيرة لسلسلة الانتقام. وهذا يعرفه سومو، وأيضًا يعرف صديقنا الكاهن هذا.

هز الكاهن رأسه موافقًا وقال:

- سومو على وشك الموت ويراجع نفسه حاليًّا، هو بين بين. فهل سيترك القرية تهلك فيستكمل انتقامه ويموت بعدها؟ أم يميل للغفران والمسامحة، فيختار الموت قبل وقوع الانتقام الأخير على القرية. وبموته تختفي لعناته الانتقامية وتفلت القرية من هلاك أكيد؟

قبل الفجر.. زئير الوحوش التي تتجمع خلف القرية. بكاء ناس القرية وصراخهم ارتفع ليوازي زئير الوحوش. الانتقام الأخير لسومو على بعد ساعة زمن. مع الشروق ستباد القرية بمن فيها لتكون أطلالًا تعلن أن هذه قرية ظالمة. ظلمت أبله محببًا للآلهة، فانتقمت الآلهة من القرية فحطمتها. خرج ناس القرية واتجهوا لممر الصعود لكهوف الآلهة. فلن تصعد خلفهم الوحوش الرهيبة. بعضهم اختبئوا في المعبد الصغير. الفجر حان ميقاته. تجمعت الوحوش المنتقمة.

الزئير يتصاعد ويقترب من المرتفع الخلفي للقرية. وحين ظهرت هامات الوحوش مع بداية الشروق. نظر الصاعدون في الممر ناحية أصوات الزئير.. لم يصدقوا ما يرون.. عشرات من الأفيال القديمة والخراتيت القديمة والسباع. كل منها حجمه غير متخيل. الزئير المتنوع والأفيال تشير بخراطيمها ناحية بيوت القرية.

الشروق.. هبطت الوحوش في سرعة ناحية القرية الظالمة. ناس القرية في الممر تصرخ مرعوبة، تخشى أن تأتي الوحوش صاعدة خلفها، خاصة النمور والأسود. في نفس الوقت كان سومو يحبو بصعوبة على ساقَيه وذراعيه وهو يدعو بقبول مسامحته وغفرانه. يحبو بإصرار ناحية حافة هاوية الأضاحي البشرية. خلفه الكهنة القدامى يرتلون، وضربات الطبول تصاحب تراتيلهم. يقترب سومو من الرخامة البيضاء الملساء. ترتخي ذراعاه فيسقط بوجهه على الأرض فيدمى أنفه وينزف. يعاود الزحف على ساعديه وركبتيه. يصل للرخامة.. يواصل حتى يصل لحافتها. يحاول الوقوف وقد وضح الشروق. لحظات وتدخل الوحوش القرية. الزئير وصرخات الأهالي تصله. يقف مستقيمًا بآخر ما لديه من قوى. وتراتيل الكهنة

وضربات الطبول تتصاعد، ثم تتوقف. يتمتم بمطالب العفو، وترك جسده يسقط في الهاوية.

هي لحظات والوحوش قاربت بيوت القرية، هي خطوات معدودة ويتم الإطاحة بأول صف من البيوت، هي لحظة اصطدام جسد سومو الأبله بعظام من سبقوه فيموت فورًا، وفورًا تختفي الوحوش وكأن لم تكن.. صمت رهيب.

صمت دهشة. صمت عدم تصديق ثم صراخ ناس القرية الفرحين بإنقاذ قريتهم.

في عيد الحصاد التالي بدأت ليلة الجريوت.. الجريوت العجوز تحكي للناس من ضمن ما تحكي: حكاية الأبله المظلوم سومو، والقرية الظالمة، والانتقام ثم العفو.

حكاية سمكة الصياد
والعفريت المراهق

فرشة ضرورية لبيان الحال

أنا «سمكة» الصياد. سأحكي لكم حكايتي. سأحكيها خبط لزق بدون تزويق ولا ترويق. فاسمعوا وعوا.

آآآه. ثم كمان آآآه. آهاتي آهات وجع، بَعيدًا عمَّن سَمع ومن لا يَسْمع. يعيش منا الإنسان يتمنى أمنيات، وحين تتحقق، يتمنى زوالها ويعود الحال للحال الذي فات! فعلا.. الإنسان لا يملا عينه غير التراب. وأنا امتلأت عيني ليس بالتراب فقط، بل بالتراب والهباب والخراب. وُلدت بلا أم، أقصد أمي مرضت وتوفيت وأنا ما زلت في طور الرضاعة، أعاشني أبي في وضاعة، فأبي المأفون، أُقسم لكم إنه نصف مجنون. اكتشفت لاحقًا أنه يضاجع المرأة التي كانت تساعد أمي المريضة! وأمي المسكينة كانت تسمع آهات الاتصال وتأوهات الوصال. تبكي أمي على حالها وعلى مجون زوجها نصف المجنون. وحين تلومه، يبكي أبي بحرقة ويشرح لها حاله:

- أنا محتاج لأنثى وأنتِ مريضة، فماذا أفعل؟ أنا مضطر يا امرأة!

أبّهات آخر زمن! وهذا الأمر لم أهْرُشه وأفْقِشه، إلا وقت أن قاربت الوصول إلى من أحببتها وأحبتني، واخترتها واختارتني. أصلًا أبي صياد فقير كُحِّيتي، خرّب بيته وخرّب بيتي. كيف؟ ستعلمون، وحين تعلمون ستتعجبون.

وصلت للرابعة من عمري. على شط البحر في ركن قفر لا ينافسنا

فيه صياد، أصطاد مع أبي مستخدمًا شبكة صغيرة. وبلدتنا صغيرة فقيرة، إلا من بعض العائلات الغنية التي تمتلك مراكب صيد، والتي تتاجر بأسماكنا مع بقية البلدات الأخرى. حافيان أنا وأبي. كل منا يرفع جلبابه ويربطه في وسطه. بحيث لا تظهر سوآتانا. فنحن فقراء وليس بمقدورنا أن نرتدي لباسًا داخليًّا يستر ذكورتينا ومؤخرتينا. وعمامة على رأس كل منا، تحمينا من شمس الصيف، وبرد الشتاء.

أبي في اليوم الذي نصطاد سمكًا وافرًا، ونبيع ما اصطدناه ونكسب كثيرًا، يذهب بالمكاسب إلى حانات البلدة، يسكر ويُحشش ويفرفش مع الخواطي، ويعود لكوخه ولابنه، الذي هو أنا، يعود متطوحًا مفلسًا تمامًا، هذا الأب الواطي، لم يدخر دينارًا ولا درهمًا لمستقبلي، وما أدخره أنا وهو دريهمات معدودات، وقت الضيق ينتزعها مني! في الثانية عشرة من عمري، كان أبي يضربني ضربًا مبرحًا، السبب؟ السبب أنني ولد بايظ وعار على اسمه وسيرته الحميدة، فأنا لا أذهب إلى الحانات لأشرب، ولم أضاجع الخواطي حتى الآن! وحين نقابل أحد المعارف، يضحك بغلظة ويشير عليّ ساخرًا:

ـ ابني هذا حتى الآن لم يكتشف أن الله خلق له أيرًا بين فخذيه!

طول تاريخه يعمل فيَّ مقالب بعدها مقالب. في الخامسة عشرة من عمري، عمل أبي فيّ مقلبًا جديدًا، ظننته الأخير، لكنه لم يكن الأخير. جاء متأخرًا ذات ليلة، مخمورًا تمامًا يغني ويرقص في رقاعة ومياعة. أسمعه في خبلانه وأصطبر مثل كل ليلة. قمت من نومي لأساعده على الاستلقاء والنوم. دفع يدي بعيدًا وهو يتطوح ويسخر مني قائلًا إن الفتاة الصغيرة أجرأ مني وأشجع، وإنه قضى مع امرأة ملظلظة ساعات نكاح، أروع من كل السنوات التي نكح فيها

أمي. كاد يقع فأمسكت به من وسطه، دفعني بعيدًا. أبي المخمور تمامًا ونصف المجنون نظر لحشيته حيث ينام، وبدلًا من أن ينحني ويستلقي في هدوء، قامت في مُخّه المخمور المغمور أن يقفز على الحشية. ثنى ركبتيه وانحنى قليلًا. يداه ممتدتان للخلف كأنه سيقفز في البحر! صاح:

ـ هاااا.

قفز! قفزته كانت زائدة جدًّا، فخبط رأسه في الجدار الحجري، فانشقت أم رأسه، ومات في لحظات غارقًا في دمائه!

شعرت بوحدة قاسية بعد دفنه. حضر مراسم الدفن عدد قليل، منهم المرأة الخبيثة، التي كانت سحنتها غريبة.. هل كانت حزينة على موت أبي، أم كانت تشمت في موته؟ لا أعلم. لم أكره أبي رحمه الله، لكني كنت أتمنى أن يكون أبي غير أبي. ولا أظن في الآخرة أن أمي سترضى أن يكون أبي هو زوجها مرّة ثانية، أمي الطيبة في الجنة إن شاء الله، وهناك لطيبتها تستحق رجلًا ذا هيبة، زوجًا عالي القيمة. أما أبي، إن لم يرحمه الله بواسع رحمته، ففي النار والعياذ بالله.

ومثلما كان والدي يصطاد السمك ويبيعه، صرت مثله. أبيع السمك إلى تاجر السمك. طبعًا، وهل نبيع السمك لتاجر البهار؟! وتاجر السمك الذي أتعامل معه ليس غنيًّا، فهو بدوره يبيعه للتجار الكبار. التاجر اسمه عبد الستّار، وزوجته اسمها نفيسة، والناس أطلقوا عليها اسم نفيسة الخبيثة، فهي والعياذ بالله خبيثة بنت ستين في سبعين. هي التي حضرت في وقت دفن أبي رحمه الله، وكانت سحنتها ما بين الحزن والشماتة. يقال إنها في شبابها، كانت «أنثى تمام»، واشتبكت في حكايات غرام، مع رجال كثيرين كثرة الهاموش

والهوام. الآن جسدها مسخرة، مُحمّلة بقِربتين وبرميلين. من الأمام صدرها قِربتان، من جلد الحمار متدليان، يحتلان مكان ما كانا ثديين رابضين كلبؤتين متحديتين، وبرميل كرشها تحتهما. في خلفها برميل مقعدتها الرجراجة، يعني لم تعد الحيزبون أنثى ولا يحزنون. لها ابنتان جميلتان كما كانت هي منذ عقدين من السنين، أكبرهما أصغر مني بسنة، والأخرى أصغر بأربع. لا تهمني حُسْنِيَّة وهي الصغيرة، الكبيرة حُسنة هي التي تهمني وأهمها. أحببتها، وتمنيت من الله أن تكون حُسنة من حسناتي وفي مشمول حياتي. أبوها عبد الستّار لا يوافق ولا يعارض، الأمر في يد زوجته نفيسة الخبيثة. ونفيسة الخبيثة لا تطيقني. تكرهني كراهة العَمى، تقول إني أشبه أبي النذل، وإنها تظن ـ وظنها صحيح في رأيها ـ أنني أنذل من أبي. وتقسم إن زواجي من حُسنة مستحيل وليس فيه ربما، فهذا أبعد من بعد الأرض عن السما! وأنا أظن أن سبب رفضها أنني فقير، والفقير عند الطماعين حقير. هي تريد لبنتيها الجميلتين ذكرين غنيين، من أولاد مالكي المراكب أو من أولاد كبار تجار السمك. تقابلني دائمًا بوجه غاضب متعجرف. عبد الستّار يقول لي: تحمل يا بني، لا تعرف غدًا يأتينا بماذا. أقول له: يا هذا، أنتظر ماذا لماذا؟ الجواب بيبان من عنوانه، أنا فَقِري من يوم مولدي، وسأبقى ليوم مماتي فَقِري.

من كانت تصبرني هي الطيبة حبيبة القلب حُسنة. تتسلل وتأتي لشاطئ البحر حيث أصطاد، وتقول بكرة كله يهون، ويفرجها الله كما أفرج عن ذي النون. هي في التفاؤل سارحة. تساعدني قليلًا وتلاعبني كثيرًا، ونرش بعضنا بمياه البحر المالحة، ويضربنا الموج معاكسًا مشاغبًا، فنقع ونقوم لنقع فوق بعضنا ونحاول ألا نقوم. يا للسعادة التي سُكَّرها زيادة. إغراء لهيبها يشتد حين تبتل ثيابها بمياه

البحر، أووووف. تلتصق الثياب بجسدها فتجسِّده تجسيدًا، وتفصصه فصوصًا، كل فص على حدة، والآحاد مُتحدة في جمع مؤنث سالم أليم، لا يسلم منه ذكر صحته مواتية وعنفوانه سليم. تصير حبيبتي حُسنة بركانًا من اللهيب. لنتخيل لهيبًا من ماء وبَلَل! لكن البلل تحته لحم وشحم ناريان يطلقان اللهب. احتضنتها مرة، وقبَّلتها مرتين، وكدت أشلحها ثلاثًا. لكن الله سلم، فإن فعلنا كنا سنقع في قاع الحرام، ونلوّث ما بيننا من هيام. المهم.. أعود كل مغربية، بِغَلَق سمك، يشتريه مني عبد الستّار، وإن سَمِعَتْ صوتي نفيسة الخبيثة، تأتي لتنكد عليّ وتسخر مني ومن والديّ. مرت السنوات وحبيبتي حُسنة ترفض كل من يتقدم ليتزوجها. تنتظرني المسكينة رغم لعنات أمها، وعضاتها وخربشتها في بدن ابنتها، لتجبرها على الزواج من غيري.

على شاطئ البحر أصيد قمقم العفريت شوشو

في نهار شتوي والسحاب ثقيل والجو بارد والهواء شديد والرزق عنيد، مستمر في الصيد ومياه البحر تصل لفوق فخذيَّ. الموج يضربني في بطني، ويطرطش على صدري ووجهي وجبهتي وعيني. البلل صار من قدمي حتى عمامتي. جسدي بدأ البرد يقشعره ويرجفه. أنا أرمي الشبكة مرات ومرات حتى تخدّر ساعداي، وأسناني صارت تصطك من البرد الذي يشتد ويشتد. ولا مرة أسحب الشبكة فتأتي لي برزق ولو سمكتين أعود بهما، فأبيعهما بحق عشائي. زهقت وأنا ألعن الأيام القاسية المعادية، والمعاندة لي من يوم مولدي وطول حياتي وستكون هكذا ليوم مماتي. ألقيت الشبكة للمرة الأخيرة، قلت فيها ما فيها أو ليس فيها، سوف أعود لكوخي وأمري إلى الله. أسحب.. أسحب.. أسحب. خالية، لكن، أهذا قمقم؟! قمقم غريب غطته الطحالب. قلت: يااااه، يا رب ما يكون مقلب من المقالب. ويا ليت لو في القمقم ذهب! سرحت في الخيال، عقلي ذهب. بلاش ذهب، لنقل فضة! سرحت، أفقت في خَضّة. بلاش فضة، دراهم نحاس تكفيني وأكون بني آدم وسط الناس، أزعّق وأقول:

ـ أشكرك يا رب!

على الرمال لملمت شبكتي وطويتها، ثم أمسكت بالقمقم. طوله ذراع وعرضه عرض مقعدة نفيسة الخبيثة. لا أتوقع خيرًا كثيرًا من القمقم، فهو ليس ثقيلًا ثقلًا ينبئ بأن المقبل عليّ مال وفير. جلست

أرضًا ووضعت فتحة القمقم أمام حِجْري. أمسكتها بيسراي، وبيمناي أمسكت بسدادة القمقم. وبقوة أصابعي الخمس انتزعت السدادة. وهُبّا وعينك يا سامعي ما تشوف إلا الويل والثبور وأخطر الأمور. كأن القمقم كهف نار. هبّة دخان حار تضرب وجهي وصدري وبطني وتلقيني على ظهري وترفع ساقيَّ الطويلتين، وتشلح جلبابي وكأني امرأة ملهوفة تطلب الوصال. آخر مهزأة وأشنع مسخرة. فزعت وارتجفت وصِحت:

ـ يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف.

وقفت أنظر للدخان الصاعد من القمقم. ما هذا؟ رأس صغير يبرز. أصلع ولولا بداية خصلة شعر أسود فاحم ناعم في وسطه لقلت إنه رأس جنين. ثم يظهر الرأس أكثر فأرى قفا ثم كتفين عاريين. الوجه أسفل ناحية الرمل. التف هذا الشيء بصعوبة لينظر لأعلى.

ـ يا رحمن يا رحيم. يا ستار يا عظيم. يا خراابي ويومي الهِباابي.

هذا عفريت. عفريت والله العظيم عفريت، وإن لم يكن عفريتا فهو كائن شيطاني. يا رب يا رحمن، اجعله عفريتًا لا شيطانًا. عيناه ليستا أفقيتين كما أعيننا، مائلتان أقسم بالله العظيم مائلتان، فلا هما بالعرض ولا هما بالطول. وأذناه كبيرتان، طرفاهما العلويان مسحوبان ليضيقا كأنهما سهمان. ألم أقل لكم إني فَقِري من يوم وُلِدْتُ ليوم أموتُ ليوم أنهض مع بقية الأموات من الأجداث حيًّا؟! أتمعن في الوجه.. طفولي أبيض محمر! عينا الكائن تبربشان نتيجة للضوء من بعد الخروج من القمقم المُظلم. ضفيرته تدلت على الرمال. يراني وأنا أقف فوقه أتابعه مرعوبًا. صاح فزعًا:

ـ شراشيرا. شراشيرا.

وبدأ يتلوى داخل القمقم ليخرج سريعًا، رفع ذراعيه وشاهدت أصابعه تمسك بحافة القمقم ليدفع بجسده خارجًا. ألقيت نفسي جالسًا أمام الفتحة، وبباطن يمناي ضربته ضربة قوية في أم رأسه، ثم بيديّ معًا أدفعه بكل قواي لأدخله في القمقم مرة ثانية. العفريت يقاوم وأنا أدفعه. معركة استماتة. أخذ في الصياح:

- شراشيرا. شراشيرا.

وأنا صِحت:

- بلا شراشيرا بلا نيلة. يا قوي يا معين يا الله.

بباطن قدمي أدوس على رأسه لأعيده داخل القمقم. الكائن الذي كان يصيح عصبيًّا، صار يبكي بكاءً طفوليًّا! ثم يحادثني راجيًا لكن بكلمات لا أفهمها. ثم ينطق كلمات أسمع عنها:

- سورياني؟ عبراني؟ عربي؟ لاتيني؟ سكسوني؟

فهمت أنه يريد مخاطبتي بلغة أفهمها، فأنا ذكي وأفهم الأمور الحائرة، حتى وهي ما زالت طائرة. قلت:

- عربي يا عفريت.

قال:

- في عرضك، أنا محبوس في هذا القمقم من أزمان. اتركني أخرج يا ولد.

- ولد! أنا في السابعة عشرة من عمري يا ابن العبيطة؟

- يعني أنا أصغر منك بثلاث سنوات.

- أنت مُجرد عيل إذن؟

ـ محبوس من عشرات السنين الطويلة.

ـ محبوس من عشرات السنين الطويلة، وتقول عمرك أربع عشرة سنة. تسخر مني أيها العيِّل؟!

ـ الطلاسم على جدران القمقم من الداخل والخارج، تبقيني في نفس العمر حتى أخرج. يا حفيظ من سيدنا سليمان وغضبه. قل لي.. ما أخبار أتباع سيدنا سليمان عليه السلام؟

ـ سيدنا سليمان! مات من زمان.

ـ أعرف هذا. أسألك عن أتباعه الذين ما زالوا يقبضون علينا ويسجنوننا؟

ـ وكيف لي أن أعرف؟ أقول لك، خلاص. خلصوا من زماااااان.

ـ الحمد لله. افرج عني اعمل معروف.

ـ تطلع وتقتلني يا شيطان؟

ـ أنا لست شيطانًا. أنا عفريت. اسمع، اسمع، أأنت مسلم؟

ـ وموحد بالله.

ـ وأنا عفريت مسلم. اسمع.. لا إله إلا الله، سيدنا محمد رسول الله. وأقسم بالله لن أؤذيك. وبشرف جدي الكبير شتاريشا. لن أؤذيك.

ـ الله وكُلنا نعرفه. من شتاريشا هذا؟

ـ هذا جدنا العظيم من لا نقسم به إلا صدقًا.

أبعدت قدمي عن أم رأسه الأصلع. قال العفريت:

- سوف أكافئك كثيرًا. اطلب مني طلبًا وسوف أنفذه لك.

- ولم لا تكون لي ثلاثة مطالب؟

- موافق.

- اقسم لي بالله مرة ثانية، وبجدك الذي نسيت اسمه، إنك لن تؤذيني أيها العفريت العَيِّل؟

- أقسم بالله وأقسم بجدي العظيم شتاريشا إني لن أضرك، وسأنفذ لك ثلاثة مطالب أيها الإنسي الطيب.

تراجعت ووقفت أنظر له وهو يخرج من القمقم. صدره ثم بطنه ثم وسطه يخرج لأعلى وهو يتلوى كسمكة فرحانة، يداه تتلويان هنا وهناك كثعبانين يرقصان رقصة نشوانة. ثم مؤخرته المغطاة بمئزرة جلدية بنية أغمق من لون الجسد بقليل، ثم الساقان. ثم يقف في الهواء بين قدميه والأرض الرملية أشبار. جسده ضئيل بحجم القمقم الذي كان فيه. يهبط ويلامس الأرض. العفريت العيّل يرفع ذراعيه جانبًا ويحركهما لأسفل ثم يعيدهما ليصلا لعلو كتفيه. يستمر في هذا فإذا بجسده يتضخم ويطول ويطول ويطول كأنه ينفخ نفسه بالهواء، حتى وصل لعلو صار رأسي موازيًا لسُرته! يا خراب بيتك وضياع صيدك يا سمكة. أنا أرتجف نادمًا أنني تركته يخرج من القمقم. أرتعش من الخوف وليس من البرد هذه المرة وأردد:

- استر يا رب. استر يا رب!

العفريت يستنشق الهواء بقوة، حتى إن شهيقه يحرك الرمال من أمامه، لتضرب في قدميه وتتصاعد ذرات منها لأعلى. يا للرعب الأوَّلي. وفي لذّة يزفر العفريت الهواء بقوة وهو مغمض عينيه.

هواء ساخن من فمه أقوى من العاصفة ذات الهواء البارد. ينزل صفحة وجهه لأسفل وينظر إليّ وقد برقت عيناه المائلتان. يا للرعب الأزلي. جسده أعرض وأعلى من جسدي مرة ونصفًا، ويقول إنه طفل في الرابعة عشرة فقط! من المفترض أن أسرع بالهرب. لم أهرب. لم أهرب ليس لأنني شجاع، بل لأنني جبان. ساقاي تجمدتا وكل جسدي يرتعش. وسر أقوله لكم فلا تذيعوه فهو عار وشنار.. تبولت على نفسي. فجأة العفريت الصغير أخذ يعدو في الشاطئ هنا وهناك، ثم يتجه إلى البحر ويجري داخله حتى تصل المياه لوسطه والأمواج تطرطش الرذاذ في وجهه. يستدير العفريت عائدًا وهو يضحك ضحكات هستيرية. يعود لي وهو مبلل مبتسم كأنه سَكِر سُكرًا. يأخذ شهيقًا عميقًا وهو ينظر إليَّ وقد ترك ابتسامته، وعبست ملامح وجهه. ينظر لي في قرف. ثم ينظر حوله في فرح ويبتسم ثم يضحك، ثم يقهقه وهو يضرب على صدره بكفيه. أنا أتراجع ربما أستطيع العدو بعيدًا. وقف العفريت حائرًا ينظر حوله. الحزن يغشى وجهه. دموعه تهطل! صاح مستغيثًا:

- شراشيرا. أمي شراشيرا. تعالي وخذيني يا شراشيرا. أنا هنا على شاطئ البحر المعزول. خرجت من سجني يا أمي. أنقذني صياد فقير أفكر في سحقه، فهو إنسي حقير.

رفعت رأسي عاليًا ووضعت كفي حول فمي كأني أصنع بوقًا. صحت فيه غاضبًا:

- يا قليل الأصل. أنا غلطان أنني أنقذتك. ثم إنك مدين لي بثلاثة مطالب. كيف تفكر في سحقي؟ صحيح.. من يلاعب الأطفال ينال حركات قلة الأدب. أنا أنقذك، وأنت تنادي أمك لتضرني؟ ثكلتك أمك.

ـ ثكلتني أمي! لا تجيب سيرة أمي يا صياد يا فقير يا حقير. ثم.. ثم اختر طريقة أقتلك بها؟

ـ نعم؟!

ـ أم أختار لك أنا؟

بكيت ولطمت خدي:

ـ كذاب حقير.

ـ هاها. أرعبتك يا إنسي يا فقير يا حقير. كنت ألعب معك فقط. انتظر سوف تأتي أمي حالًا. اسمع، لماذا ترتجف؟

ـ البرد شديد.

ـ أنا أكاد أن أكون عاريًا، ولا أحس ببرد.

ـ أنت عفريت لا تحس. أنا بشري.

ـ بشري ضعيف سخيف تستحق أن تعيش في كنيف.

ـ الله يقرف أمك.

ـ قلت لا تأتِ بسيرة أمي، وإلا قتلتك وسلختك وشويتك ثم ألقيتك للكلاب تلتهمك.

ـ كل هذا؟ ننسى أمك، لعن الله...

ـ إمممم. عندما أُهمهم بـ إمممم. يجب أن توقن بأني في حالة غضب عميق.

ـ انتهينا. اسمع، أنا بردان وملابسي مبللة، ولن أنتظر أمك. نفذ لي طلباتي الثلاثة.

وقف صامتًا قليلًا. ثم وجه وجهه بعيدًا عني وأعطاني ظهره. ساعداه أمام وسطه الذي لا أراه. ماذا يفعل؟ وإذا بنهر مياه يطير منه للأمام بعيدًا جدًّا ثم يهبط على الرمال في صوت شلال. يتبول العفريت. ثم رائحة بول مركزة. الله يقرفك. الحمد لله إنها أتت على بول. بعدها التفت ونظر إليَّ وبه راحة نفساوية وقال:

- يا سلام. سنين لم أفعل هذه الفعلة!

- يا سلام. حاجة تِفَرَّح يعني؟ هيّا، طلباتي وكل منا يذهب لطريقه.

- اسمع. أنا أتعجل العودة لموطني. أريد أن أتزوج سريعًا. سريعًا. سريعًا. تعرف سأتزوج من؟ شرشورة.

- وأنا مالي بشرشورة وكعبورة!

- فتاة جميلة تعجبني وأعجبها. آخ عندما أحضنها بقوة.. أووو.

وأخذ العفريت السخيف يأتي بحركات إباحية مخجلة مقززة.

- يخرب بيت أهلك عفريت مراهق.

صوت من بين السحاب ينادي:

- شوشو. شوشو.

فأجاب العفريت، الذي كنت أظنه عيّل، وتبين لي أنه مراهق:

- أنا هنا.

يا سلام من تراكم البلاءات. يعني أنا قدرت على عفريت مراهق، حتى تأتينا عفريتة بالغة! في السماء العالية، عفريتة تسبح في الأعالي ببساطة وشعرها يتطاير فوقها وخلفها. تهبط ناحيتنا. كلما اقتربت ظهرت ضخامتها. تهبط بالقرب من العفريت الصغير، وهي تنظر

إليه في حب ووله. إنها عفريتة كاملة الأنوثة. مئزر يغطي وسطها، لكن صدرها عارٍ. ويا له من صدر متين. لِمَ تنظر لي كأني لا مرئي أو كأني لا شيء! العفريت المراهق الذي بان على وجهه الفرح، أسرع إليها مرتميًا في حضنها. العفريتة أطول منه بكثير، أعلى رأسه حيث مطلع ضفيرة شعره، بالكاد تصل لأسفل ثدييها. بالمناسبة، لها ثديان، أووف، لننسَ الضخامة، ثديا العفريتة أحلى وأشهى من ثديي حبيبتي حُسنة. تربت على ظهره في حنان.

مضَى وقت يحتضنان بعضهما البعض. ثم ينفلتان. ثم يتحاوران بلغة لا أفهمها، معظم كلماتها محشور فيها حرف الشين. شوشو العفريت يبكي. والعفريتة تواسيه كأم رءوم. العفريت يلتفت إليّ باكيا شاكيا:

ـ أمنا شراشيرا ماتت يا صياد يا فقير يا حقير. هئ هئ.

كنت أظن هذه العفريتة أمه. قلت وأنا في خوف فظيع:

ـ الله يرحمها يا...

ـ شوشو.. اسمي شوشو.

ـ الله يرحمها يا شوشو.

يعودان لحضن بعضهما البعض ويبكيان بحرقة، خاصة شوشو. الهواء يحرك شعرها ويبعثره، وضفيرة العفريت المراهق تتراقص. حقيقة دموعي هطلت. مشاعر إنسانية تتجاوب مع أحزان العفريت، ألسنا جميعًا مخلوقات الله؟ صعب عليّ شوشو. شوشو أبعد رأسه عن بطن العفريتة ونظر لي هذه المرة لائمًا:

ـ وأنت تدعو عليّ بثكلتك أمك؟ ها قد ثكلتها.

تحتضنه العفريتة. أكيد أنها أخته. أخته وهي تحتضن شوشو سألته وسمعت منها كلمة عربي. نظرت إليّ من علوها في غضب:

ـ أنت يا صياد يا فقير يا حقير. دعيت على أخي شوشو؟ دعيت عليه بموت أمه! لحظات وسأتفرغ لك.

مرعوب أنا موكوس. جبان أنا متعوس. جلست الأخت البالغة وأخوها المراهق. بدأت أتمعن في ضخامة أخته التي ناداها باسم شاشا. ضخمة ضخمة ضخمة. لكن تكوينها الجسدي نسبة وتناسب، رشيقة، بها أنوثة تلقي بالذكور في جهنم الرغبة التي ما بعدها رغبة. حقيقي هي فاتنة. فجأة وجدتها تنظر لي وكأنها أحست بما أفكر فيه. قالت لشوشو:

ـ هذا الصياد الفقير الحقير لا يستحي.

ـ صح.

ـ أتحب أن أنسف جسده أشلاء وأريق دمه على الرمال؟

ـ لا، أنقذني من سجني، وله عندي ثلاثة طلبات.

ـ لماذا؟ يكفي أنك ستتركه حيًّا!

ـ لقد وعدته وأقسمت له بالله وبجدنا شتاريشا.

ـ إذن أعطه طلباته. فوالدنا ينتظرنا هو وإخوتك. لقد سمعنا نداءك لأمك رحمها الله، هيّا.

هدأت نفسي ورفعت يدي للسماء شاكرًا:

ـ ياما أنت كريم يا رب.

الأخت وأخوها وقفا. الهواء كاد يزيح مئزرة شاشا. أنا تقريبا في

مستوى يقارب وسطها، عيناي اتجهتا لما كان ممكن أن ينكشف. لا أعرف كيف عرفت شاشا بنت الحرام. تنظر لأسفل ناحيتي مبتسمة راضية، ثم تمالكت نفسها وزعقت فيَّ:

ـ أين تنظر يا إنسي يا وقح؟ وهل ما تريد أن تراه تقدر عليه؟

خجلت من نفسي ونظرت أرضًا. قالت لأخيها شوشو:

ـ احذف طلبًا من طلباته الثلاثة، حتى يتعلم الأدب. هذا الحقير يحاول كشف مواضع أختك الأنثوية.

ـ ماذا؟ صحيح يا صياد يا فقير يا حقير، تنظر لمواضع أختي الأنثوية يا قليل الأدب؟

لم أستطع الرد. قالت الأخت لأخيها:

ـ انتهينا. شوشو. اسمع طلبين فقط من هذا الفقير الحقير ونفذهما سريعًا، أما أنا.. فسوف أمنحه طلبًا من عندي سيكون مفاجأة له. هيا لنعود لعائلتنا، ثم إن رائحته زفارة سمك، لا أتحمل قرف البشر.

سألني شوشو:

ـ طلبان مني يا صياد يا زفر؟

ـ طلبان فقط! وأيضا تنعتني بزفر! طيب. أول طلب. تبني لي على التل البعيد هذا، قصرًا به ٩٩ حجرة.

ـ لا، يكفي ١٩ حجرة.

ـ لماذا؟

ـ هذه قدراتي، فأنا ما زلت صبيًّا.

ـ أختك شاشا. تساعدك.

صرخت فيّ شاشا:

ـ ليس لي دخل بك يا زفر.

قال شوشو:

ـ طلبك الثاني والأخير؟

ـ تضع داخل القصر صندوقًا أكبر من القمقم ثلاث مرات، مليئًا بالذهب.

ـ انظر إلى التل الذي اخترته.

نظرت.. فإذا بقصر صغير أنيق بُني عليه بالفعل! فرحت جدًّا وقلت لشوشو:

ـ هل وضعت في القصر الصندوق الكبير المعبأ بالذهب؟

ـ نعم. والآن، لم تعد فقيرًا، صرت حقيرًا فقط. الوداع يا حقير.

ـ وأين الطلب الذي ستنفذه لي شاشا؟

أجابت شاشا:

ـ لقد نفذته بالفعل؟

ـ أين هو؟

ـ ستعرفه في وقت أن تعرفه يا صياد يا من كنت فقيرا حقيرا، والآن صرت حقيرًا فقط، ويوما ستعود فقيرًا حقيرًا.

ـ ماذا؟!

نظر شوشو حوله، اتجه للقمقم، ركله بقدمه فطار القمقم شظايا

وسقط متناثرًا في مياه البحر الهائج. ضحك سعيدًا. مدت أخته شاشا يدها فأمسك شوشو بكفها. طارا في الجو. نظرتُ بتمعن بين ساقَيْ شاشا. لم ألحق، فقد طارا بسرعة واخترقا السحاب، وانتهيت منهما كما ظننت.

فجأة انتبهت.. جسدي يرتعش من البرد. ملابسي بها بلل ماء البحر المالح. نظرت إلى التل لأطمئن على وجود قصري الصغير. تركت شبكتي. أسرعت عدوًا ناحية قصري سعيدًا. لم أعد من وقتها صيادًا فقيرًا حقيرًا. أنا الغني صاحب القصر الأنيق وصندوق الذهب. أنا سمكة الذي سيتزوج حُسنة وسوف ترضى عني أمها نفيسة الخبيثة.

أيام ثلاثة اشتريت كل ما يحتاجه قصري، اشتريت ملابس من أغلى الملابس. من أول المركوب المذهب، حتى الجلابية الناصعة وعليها عباءة أيضًا مذهبة. كل ملابسي مُذهَّبَة، لا شيء مُفَضض، وهل أنا فقير حتى أهتم بالفضة والمفضض؟ ثم العمامة العالية ذات الألوان. الكل يتعجب كيف لهذا الصبي الصياد الغلبان، كيف يكون بهذا الغِنى ويلبس الطيلسان؟ بعد أسبوع سوف أذهب إلى المدينة الكبيرة حيث قصر السلطان وكبار المملكة. اشتريت أحلى وأفخر وما هو أزهى من ملابس الأمراء. أحضرت خدمًا وحشمًا، بل أحضرت حراسًا شدادًا منهم من يحرسون القصر، ومنهم ما كل مهمتهم السير خلفي ويكونون تحت إمرتي. بعدها ذهبت على صهوة جواد أصيل إلى بيت عبد الستّار ونفيسة الخبيثة. خلفي اثنان من حراسي مُسلحان بالسيوف والرماح، يركب كل منهما حصانه، وعلى رأسه بيضة حديد لامعة. عبد الستّار لم يعرفني. لما ضحكت وتحدثت معه، فغر فاه. لا يصدق. نادى زوجته نفيسة الخبيثة. لم تعرفني ورفضت أن تعرفني. لا

تريد أن تصدق أن من كانت تحتقره وترفضه بعنطزة وقلة أدب، أصبح غنيًّا، بل وأغنى من الأمراء. دخلت في بيتهم الفقير وبقي الحارسان خارجًا. جلست على كنبة وجلس أرضًا أمامي عبد الستّار. نفيسة تقف عند باب الحجرة تنظر لي في غيظ وحقد أعوذ بالله. طلبت يد حسنة. عبد الستّار فرح ووافق فورًا. نفيسة الخبيثة رفضت! يا بنت الخبائث. ما هي حجتك الآن؟ قالت:

ـ بعدما ماتت أمك. كنت مع سيدات أُخر، نُرضعك لبن الماعز. ثم لما وضعت أنا حسنة، صرت أرضعك معها. أنت وحسنة إخوة بالرضاع يا فقري، لا يجوز زواجكما! لهذا السبب كنت أكشر في وجهك حتى تبتعد. الآن أنا مضطرة للبوح.

ـ لكن لماذا لم تقولي هذا من بدري؟

قالت نفيسة الخبيثة:

ـ حتى لا تتحجج بأُخوَّتك مع حسنة، وتدخل البيت وتعتبر نفسك من العائلة، وأنا لا أحبك أصلا، فأنت وش نحس. أنت مَن أمات أمه، ثم أمات أباه.

بقيت أسبوعًا وأنا في ألم وبكاء وشقاء. وحسنة بكت وانهارت مرات متواليات. جاءني عبد الستّار. أدخله الخدم في حجرة الضيوف. دخلت عليه ووجهي مبلل بالدموع. وجدته مثلي باكيًا. قال إن ابنته حسنة طوال الأيام في بكاء، وكل يوم يُغشى عليها أكثر من مرة. المسكينة مصدومة، حسنة تحبك حبًّا عميقًا، لم تحب حبها أي فتاة من ميلاد ابنتي حواء وآدم. احتضنته وبكينا معًا. جئت له بشراب منعش وبعد أن هدأ قليلًا قال:

ـ نفيسة الخبيثة تقول حسنة أختك، فلم لا تتزوج أختها الصغيرة

حسنية، على الأقل تتزوج من هي من دمها ولحمها وتحمل رائحتها؟

بعد أسبوع تزوجت حسنة من شاب عائلته تمتلك مراكب صيد، أي أنه عريس غني، لكنه بالطبع بالنسبة لي فقير. حسنة تبكي في ليلة فرحها. بعد شهر أقمت أنا عرسًا هائلًا تزوجت فيه من حسنية. ولما انفردت بها، بكيتُ بكاءً عظيمًا، فأنا لا أحب حسنية، كنت أتمنى أن تكون حسنة هي عروستي. حسنية تعلم أنني أحب أختها، فكتمَت غضبها وغيرتها. لم أستطع معاشرتها معاشرة الزوجين. جاءتني أمها نفيسة الخبيثة، لعنتني واتهمتني بأنني عِنين. جاءني أبوها عبد الستّار لائما، قال لي من أجل خاطر حسنة، لا تكن قاسيًا على حسنية. وفعلا اقتربت من حسنية، وبعد تسعة شهر أنجبت أول أولادنا.. حسونة. وبعد سنتين أنجبنا حسنين. أما حسنة فأنجبت بنتين. كانت تعسة كما أنا تعس، لكن هذا هو القدر الذي أمَر.

سنوات قليلة مرت. لا أحس بطعم الحياة رغم كل الأموال التي أمتلكها، ورغم أن البلدة كلها صارت تنافقني وكل من فيها يتمنى أن يصادقني، والكثير من الفتيات يتمنين أن أتزوجهن، والكثير من النسوان يتمنين أن أضاجعهن وألقي عليهن بعضًا من دنانيري. زوجتي حسنية تعسة معي، كرهَت أختها حسنة لأنها هي حبي الوحيد. حسنة زوجها انفجر غيظًا، ففي لقاء جسدي بينهما، بدلًا من أن تنطق باسمه، نطقت باسمي وأردفته بكلمة حبيبي. ثم أتى بلاء ضايقني وبث فيَّ التشاؤم، مات حماي الطيب عبد الستّار، سبحان الله، لماذا لم تمت نفيسة الخبيثة بدلا منه؟ أستغفر الله العظيم. ثم كان البلاء قبل الأخير، نسيت مع كل هذه الابتلاءات ما توعدتني به العفريتة شاشا، أخت العفريت المراهق شوشو، حين سألتها عن طلبي الثالث، التي

قالت إنها سوف تقدمه لي، ألم تقل لي: «ستعرفه في وقت أن تعرفه يا صياد، يا من كنت فقيرا حقيرا، والآن صرت حقيرًا فقط، ويوما ستعود فقيرًا حقيرًا».

يومًا وجدت أحد الخدم يهرع إليَّ قلقًا. قلت: ما بك؟ قال: اثنان من تجار البلدة غاضبان منك غاية الغضب ويريدان مقابلتك. قابلتهما، أمس اشتريت منهما بعضا من الملابس والقلادات. أخرج كل منهما كيسًا وفتحه ونثره على البساط أمامي.. قِطع حديدية صدئة! قلت:

ـ ما هذا؟

قالا:

ـ إنها دنانيرك الذهبية التي أخذناها منك مقابل بضائعنا.

ـ لكن أنا أعطيتكما دنانير ذهب!

ـ لقد تحولت لحديد صدئ. أنت ساحر عليم شرير يا سمكة.

ـ اطمئنا. انتظراني دقائق.

ذهبت لصندوقي الذي ما زال متخمًا بالذهب، فتحته. فإذا بالدنانير التي كانت تملؤه لألأة ذهبية، صارت حديدية كئيبة تنفث رائحة صدأ! أُقلب في الدنانير، أقلب من هنا ومن هناك. ربما أجد بعض الذهب.. أبدًا، كل ثروتي حديد صدئ! بكيت ولطمت وصرخت. التاجران استردا بضاعتيهما وفوقهما بعض المشغولات من قصري عوضًا. لم أنم ليلتها، ليس من السهاد فقط، بل المصيبة أن تجار القرية وجدوا الكثير من دنانيرهم وقد تحولت إلى حديد صدئ. عرفوا أن هذه الدنانير أتتهم من عند سمكة الصياد. يا ويلك وسواد ليلك

يا سمكة. أتوني فرادى وجماعات، وكل من يصل لقصري يأخذ ما يعوضه من القصر. زوجتي حسنية بكت ثم صارت تصوت وتلعنني، وتلعن اليوم الذي تزوجتني فيه، وتلعن أمها التي زوجتها مني. أعطينا الحراس حقهم من مقتنيات البيت وأبعدناهم، ثم أنا وحسنية زوجتي جردنا قصرنا من كل ما هو غالٍ ونفيس، وكان ما تبقى من الغالي والنفيس قليلًا. حملنا ما جمعناه على حصان، وتركنا ما لم نستطع حمله. تركنا القصر والظلام مُخَيّم وأنا بسوء المصير مُدلهم على حصاني وقد أردفت خلفي حسونة، ومعي أيضًا حبل مربوط في لجام الحصان المحمل بما استطعنا جمعه. وحصان ثالث عليه حسنية وخلفها حسنين. وقع الحوافر كأنها ضربات طبل منذرة، تقول لي لا تظن أن هذا الابتلاء هو الأخير، انتظر خبطات وضربات كما وقع الحوافر المتواليات. ذهبنا إلى بيت نفيسة الخبيثة، سَمِعَتْ بما كان. كالت لي السباب بكل لفظ يُعاب. وأخذت حسنية في حضنها تواسيها على حظها التعس، الذي أوقعها مع لص ساحر داعر فاجر.

في تلك الليلة، ليلة الانكشافات والتحولات، إذا بمن أحببتها وأحبتني، إذا بحسنة تأتي على حصان رهوان. هبطت من صهوته وأسرعت تدخل البيت، تصرخ: أمي.. أمي. فزعت أمها وفتحت لها حضنها، حبيبتي حسنة شاهدتني أقف في جانب وقفة المسكين، فتركت حضن أمها المفتوح وألقت نفسها في حضني. لم تسمع ولم أسمع لعنات أمها ولا لعنات أختها. وهي في حضني المحروم قالت حسنة:

-زوجي طلقني يأسًا من حبي، فحبي لك يا حبيبي مزروع في قلبي.

حسنية زوجتي لعنت أختها حسنة، التي نسيت واجبات الأخوة

وأحبت زوج أختها. أمها نفيسة الخبيثة تسب ابنتها حسنة على إعلانها الفاجر، فردت حسنة السباب بالسباب على أمها، بل اتهمتها بأنها فعلا خبيثة، وأنها السبب في موت أبيها عبد الستار حزينا بائسًا. هنا نطقت نفيسة الخبيثة بآخر مقالب أبي.. قالت:

- الآن حصحص الحق، زوجي عبد الستار مات، وعليه من حقي أن أبوح بما كنت أكتمه. أنا كنت عشيقة الصياد المجنون الذي أنجب هذا الشاب الصياد المأفون. وكانت زوجته المريضة، تسمع أصواتنا ونحن نلعب ونلهو معًا، ونتضاجع ونتأوه ونتفوه بكل ما في لغة النكاح من همهمات ونباح. ماتت وهي تسمع شخير زوجها وهو يفرغ ماءه فيّ. كانت تعسة، وأنا أيضًا كنت تعسة، فأبوكما يا حسنة ويا حسنية، كان قد صار عنينًا ولم يعد يستطيع الاقتراب مني اقتراب الذكر من أنثاه، فماذا أفعل؟ هل أبقى بقية عمري في حرمان، ولي جسد ثائر فائر يريد حقه؟ ونتيجة لعلاقتي بالصياد المجنون، أنجبتكِ يا حسنة. فسمكة ليس أخاكِ بالرضاع، بل أخوكِ بالفعل. أنا أمكما ولكما أب واحد، هو الصياد المأفون نصف المجنون. وأنا حقيقة لا أكره سمكة، فهو ابني. لكن أدعي كرهه لأبعده عن أخته حسنة.

قبل أن ينبلج الصباح. ودّعت ابنيَّ حسونة وحسنين. وودعت حبيبتي حسنة. لعنتني زوجتي حسنية ولعنت أختها حسنة، فقلت لها أنتِ طالق. فزغردت حسنية حتى تكيدني، وتبين أنها لا يهمها طلاقي وفراقي. وأغاظتني بأنني لن أستطيع الزواج من أختها حسنة، لأن حسنة أختي بالرضاع! احتضنت ولديَّ حسونة وحسنين الحضن الأخير، واحتضنت حسنة التي أعشقها وسأعشقها حتى لو كانت أختي من ظهر أبي. قلت لحبيبتي بقلب صريع وحزن مريع:

ـ لن أنساكِ يا حب العمر.

هربت قبل أن يأتي أهل البلدة فيضربوني وينتزعوا مني ما تبقى معي، ثم يأسروني ليسجنوني، أو ربما يقتلوني. تركت لطليقتي بعض مقتنياتي لتصرف بها على طفلينا، وأبقيت معي بعض المقتنيات الذهبية الثمينة لأتعيش منها لحين ما أجد عملًا أرتزق منه. وبدأت رحلتي من بلدة لبلدة لثالثة لرابعة، ومن الرابعة خرجت لبلدة خامسة. بعت أكثر ما أملكه من مقتنيات ذهبية، لكي أصرف على نفسي وعلى حصاني.

عودة العفريت شوشو

صباح حار جدًّا. الشمس قوية ومتجبرة. على حصاني أقطع مسافات طويلة. العرق بللني تمامًا. فترة الظهيرة بالكاد تركت الحصان يستريح قليلًا، بعد أن أطعمته ورويته. تناولت أنا بعض الطعام وشربة مياه. ومرة أخرى على حصاني نسرع في هذا الجو الخانق. وقبل الغروب دخلنا بين زراعات واسعة وقليل من أشجار متناثرة، لا إنسي على مدد الشّوف. وإذا بي أحس بأن أحد المخلوقات يعدو بجانبي وسرعته مثل سرعة الحصان الرهوان! وقبل أن أفهم ماذا يحدث، إذا بالحصان وحده وبدون أمر مني، إذا به يسرع منحرفًا عن طريقه وهو يصهل خوفًا. وإذا بمن يسرع بجانبي ولم أتبينه جيدًا لشفافيته المقصودة. إذا به يسرع أكثر متابعًا انحراف الحصان، ويتخطانا ثم يلتفت ويواجهنا أنا والحصان، وفي نفس الوقت يعدو بظهره بنفس سرعته ووجهته نحوي أنا والحصان. أنا فزعت مما أرى، لكن كانت فزعة الحصان أفزع، الحصان جعل من ساقيه الأماميتين كابحًا فأوقف نفسه فجأة، فوجدت نفسي أطير عاليًا وأسقط أرضًا منبطحًا على وجهي بين ساقَي ما كان يعدو بجانبنا، ثم صار يعدو أمامنا ثم توقف عندما توقف الحصان. اعتدلت وجلست على مؤخرتي، تبينت الكائن الذي أفزعني وأفزع الحصان. صِحت متألمًا من السقطة متنكدًا من هذا المخلوق:

- آآآه. يا للنكبات حين تكون متواليات! يا رب يا حفيظ من البلاءات أبعد عني العفريت الخبيث.

العفريت الذي سقطت بين ساقيه الطويلتين الضخمتين، وأخذ يضحك ساخرًا مني، هو العفريت شوشو. شوشو الذي أنقذته من القمقم. شوشو المراهق. شوشو الذي أخته العفريتة الشريرة الجميلة شاشا. وقفت أنفض التراب عن ملابسي. لكن شوشو تغير بعض الشيء، ازداد طولًا وعرضًا وجسده رَبْرَبْ ببعض اللحم الزائد. لم يعد شوشو المراهق، يكاد أن يكون عفريتًا كامل الرجولة. التفتُّ للخلف لأطمئن على حصاني. الحصان لم يهرب بعيدًا، فزعته الرهيبة شلّته وجعلته يبول لا إراديًّا، وجعلت عينيه تجحظان. تذكرت ما حصل لي عندما شاهدت العفريت شوشو في حجمه العفريتي الأصلي. وقتها الخوف شل حركتي وتبولت على نفسي. حصاني جبان مثلي.

أحنى شوشو جذعه واقترب برأسه مني، وقال ساخرًا:

ـ هل تعتقد يا إنسي يا جاهل يا غبي، أن الحصان أسرع من عشيرة العفاريت؟ الطفل من عشيرتنا أسرع من أسرع حصان لديكم.

صحت فيه غاضبًا:

ـ ماذا تريد مني؟ ألا يكفي ما فعلته بي؟ تسقطني هذه السقطة التي كان بإمكانها كسر رقبتي! وقبلها تعطيني كميات من الذهب والفضة، وهي في حقيقتها حديد صدئ! يا خبيث.

ازداد ضحك شوشو وقال:

ـ ليس أنا. إنها أختي شاشا.

ـ عليها لعنة الله.

ـ لا تلعنها فأغضب منك.

- اغضب، فماذا ستفعل بي أكثر مما فعلته أنت وأختك الملعونة شاشا؟ لعن الله أبا العفاريت كلهم. اغضب يا عفريت يا شرير يا أخا الشريرة.

- إمممم. إن لم أتمالك غضبتي هذه، فسأضربك ضربة بباطن كفي على أم رأسك. فأبططك مثل الفطيرة على الأرض. تريد أن تجرب؟ إمممم.

- لا. لا تبططني مثل الفطيرة! يا لجبروت العفاريت حتى لو كانوا عفاريت مسلمة. وماذا لو كنت عفريتًا من عشيرة العفاريت التي تعبد الأصنام؟ كنت أكلتني يا شوشو؟ لكن.. لكن لماذا فعلت أختك بي ذلك المقلب القاسي؟

- لأنها كرهتك.

- كرهتني لأنني نظرت لمواضعها الحساسة؟

- لا. هي ادعت أنها كرهتك لهذا. في الحقيقة أختي شاشا كرهتك لأنك دعيت عليّ وقلت ثكلتك أمك. وأمي التي هي أمها، كانت قد ماتت من أيام، لذلك كرهتك وقررت أن تعاقبك.

- عليها اللعنـ...

- قلت لك لا تلعن أختي.

- انتهينا.

الحصان بدأ يتحرك. بدأ يخرج من شلله الجُبْني. وإذا به يعدو بعيدًا هاربًا. أنا صحت متحسرا غاضبًا:

- الحصان. حصاني. حصاني وعليه احتياجاتي يا شوشو يا ملعون.

- لا تقلق يا سمكة يا صديقي.

وإذا بالعفريت شوشو يطير على ارتفاع شجرة عالية، ويلاحق الحصان طائرًا، حتى سبقه ثم هبط أمامه فتوقف الحصان وغير اتجاهه وهو يعدو بأسرع ما أمكن له. وكلما غيّر الحصان اتجاهه. يجد العفريت وقد سد عليه طريقه، فتوقف يائسًا يصهل صهيل الغلبان التعبان وهو يبول مرة أخرى. العفريت أخذ يتضاءل في حجمه، حتى صار في حجم إنسان عادي، وأخذ يربت على عنق الحصان ليهدأ، ثم قاده من لجامه وعاد به ناحيتي. الحصان يمشي الهوينا. والعفريت شوشو يمشي وساقاه لا تلامسان الأرض. يمشي مبتسمًا ينظر لي في فخر بقدراته العفريتية. ترك العفريت الحصان وفي لمحة عاد لحجمه الطبيعي مثل بقية مخلوقات العفاريت، وهنا عاد الحصان للصهيل المرتعب وللتبول اللاإرادي. ضحك العفريت شوشو وعاد لحجم البشر حتى يريح الحصان، ثم نظر لي يستكمل حواره معي:

- هيا اركب حصانك. أمامنا مشوار طويل.

ذهبت إلى الحصان الذي نظر إليَّ لائمًا ومستنجدًا من العفريت. قلت لشوشو:

- الحصان عرف أنك عفريت.

- نعم. فالحصان أذكى منك يا بشري.

ملَّست على رقبة الحصان لأطمئنه. رقبة الحصان وسائر جسده مليئة بعرق الخوف أكثر من عرق العَدْو. امتطيت الحصان وقلت غاضبًا:

- وما هو هذا المشوار الطويل؟ أنا لم أعد أثق بك ولا بأختك ولا بأي عفريت خلقه الله.

ـ سأعوضك عن الذهب والفضة اللذين صارا حديدًا صدئًا. سأعوضك عما كابدته بسبب خباثة أختي.

ـ وهل تستطيع أن تعوضني عن هجري لابني حسونة وحسنين؟ وهل تستطيع أن تعوضني عن طلاقي من زوجتي حسنية؟ أجب يا شرير.

ـ قلت سأعوضك. سأعيدك غنيًّا، وتستطيع أن تعود لزوجتك وابنيك وأنت عال العال. هيا اجعل الحصان يسرع، فهو لم يعد خائفًا مني، لقد لاحظ الحصان أني أحادثك وأني طيب. هيا.

الحصان يسرع بي، والعفريت شوشو يعدو بجانبه وهو في حجم البشر. العفريت رغم سرعة العَدْو لا يظهر عليه أي تعب، وكأنه لا يعدو، كأنه يسير الهوينا! نظرت إليه غاضبًا بالفعل مما حدث لي. حين نظرت إليه وأنا على صهوة حصاني، تعجبت: شوشو اخضر ذقنه وإن كان قد حلقه، ونبت شاربه ناعمًا ممتدًّا للجانبين ثم نزل كل من ناحيته لأسفل ذقنه، وصوته صار خشنًا. نظرت لمئزره لمجرد أن أتأكد، بالفعل تحت المئزر عضو رجل كامل الرجولة. أخذ العفريت يضحك فرحًا وقد عرف ما يجول في عقلي. قال:

ـ أنا كبرت يا سمكة. ثم عليك أن تبارك لي.

قال هذا وأسرع سابقًا الحصان بمسافة، ثم عاد إلينا يعدو وظهره ناحيتنا، ثم عاد ليعدو بجانب الحصان وهو يرقص رقصًا فاحشًا ويضحك ضحكًا فاجرًا. وقال:

ـ لم تبارك لي يا سمكة. ألسنا أصدقاء؟

ـ أبارك لك على ماذا؟

- تزوجت. أنا تزوجت. تزوجت.. تزوجت.. تزوجت.

وأخذ العفريت شوشو يأتي بنفس الحركات الإباحية المخجلة المقززة، التي شاهدتها منه وقت أن أنقذته من القمقم. فسخرت منه ولعنته بيني وبين نفسي. وقلت له:

- مبروك.

- تقول مبروك بدون حماسة يا سمكة!

- كل المخلوقات تتزوج. عادي. وهل تظن أنك أتيت بأمر مذهل لمجرد أنك تزوجت؟

- وزوجتي هاها.. وزوجتي هاها.

- زوجتك هاها! زوجتك اسمها هاها؟

- لا.. اسمها شرشا ابنة شرشورة.

- أسماؤكم كل شششش. أليس فيكم من اسمه شَخّة؟

- هاها. شخشخ حَنكَكْ. هاها. أليس هذا هو ردكم البشري على من يقول شَخّة؟ هاها. نحن عفاريت نعرف كل أموركم. لكن يا سمكة يا زفر، لنبقَ في موضوعي. ألم أحكِ لك عن البنت شرشورة التي كنت أريد الزواج منها؟ طبعا في غيابي الطويل تزوجت وأنجبت. ومن ضمن من أنجبتهم فتاة جميلة مثل أمها تمامًا اسمها شرشا.. تزوجتها بدلًا من أمها.. هاها.

- كلام مخابيل مخبولين.. هاها.

- هاها.. فعلًا دمك خفيف يا سمكة يا زفر. زوجتي هاها.. حامل. حامل في توأم يا سمكة يا صياد يا فقير ويا حقير.. هاها.

ـ هاها.. الماعز تحبل وتنجب توأمًا، والكلاب والقطط تحبل وتنجب ثلاثة وأربعة وخمسة وستة.

ـ هاها. لكن أنا عفريت. زوجتي هاها.. حامل في توأم. تعرف يا سمكة يا إنسي يا فقير يا حقير. الزواج متعة. تعرف.. لا تَفوت ليلة إلا... هاها.. إلا... هاها. إلا وأمتع نفسي وأمتعها.. هاها.

وعاد لحركاته العبيطة المخجلة.

ـ شوشو.

ـ نعم يا سمكة يا بشري يا...

ـ أنت مراهق ساذج.

ـ هاها. صح. صح. أنا مراهق ساذج. تعرف.. أنا قوي قوي وفحل فحل. أحتاج لعدد من نساء العفاريت لأمتع نفسي. هاها. صح يا سمكة، أنا عفريت مراهق.. هاها. أختي الصغيرة شاشا دائمًا تقول عني إني ولد مراهق.

ـ أختك الصغيرة شاشا! تقول شاشا أختك الصغيرة يا ولد يا مراهق؟

ـ نعم.

ـ لكن أنا رأيتها. هي أكبر منك.

ـ أصل أنت لم تفهم يا بشري يا غبي. شاشا أختي الصغرى. لكن حين كنت محبوسًا في القمقم، توقف نموي وأختي نموها ماشي. صارت وكأنها الأكبر مني، وهي في الحقيقة الأصغر. ألم أقل لك إني تزوجت ابنة من كنت أحبها؟ طبعا السبب في

كل هذه اللخبطة المُحَنّطة هو سيدنا سليمان وغضبه عليَّ وعلى غيري وحبسه لنا.

- أووووف.

- لا تتأفف. المفروض أني أنا أتأفف منك. إففف.

- لماذا تتأفف مني.. إففف؟

- رائحتك عفنة. العرق تراكم على جسدك، فصارت رائحتك مقرفة.. إففف.

- إففف عليك وعلى أختـ...

- إمممممم. اسمع.. لقد قررنا أنا وأختي الصغيرة شاشا...

- بُصْ. ابعد أختك هذه عني.

- هي نادمة على بعثرة عائلتك وأنها وضعتك في موضع مهين.

- أنا لن آمن لها.

- ولا لي؟

- أنا آمن لك نصف نصف.

- بشري ناكر للجميل. المهم.. لقد قررنا أنا وأختي الصغيرة شاشا. أن نعطيك الفرصة لتكسب ذهبًا وفضة في مملكة غنية.

- لا.

- لا!

- ستفعلان بي كما سبق.

- أحلف لك بجدي شتاريشا.

ـ وهل جدك شتاريشا هذا مقدس؟

ـ إمممم. ستغضبني. أضربك براحة كفي أجعلك فطيرة مبططة على الأرض.

ـ طفلاي أوحشاني.. هئ هئ.

ـ سنعوضك.

ـ حسونة وحسنين.. هئ هئ.

ـ أوقف بكاءك النسواني. ثم أنا وشاشا لن نعطيك ذهبًا وفضة فتخشى أن يتحولا لحديد صدئ. سنتيح لك فرصة هائلة في مملكة غنية اسمها مملكة البرقوق الذهبي. ملكها يضع في مقدمة عمامته أكبر ياقوتة حمراء في الدنيا، حتى العفاريت ليس عندهم ياقوتة مثلها! سنرسلك لمملكته الذهبية. وستكون في مركز سام وتمتلك بنفسك الذهب والفضة. وهناك تفكر كيف تستعيد طفليك.. ما اسمهما؟

ـ حسونة وحسنين.

ـ طفليك حسونة وحسنين.

دعوت عليه وعلى أخته في سرّي:

ـ انتقم الله منك ومن أختك شاشا.

ـ اسمع يا سمكة. أنا عرفت أنك تدعو عليّ وعلى أختي. سأسامحك. اسمع. أنا وضعت بين طيّات عمامتك كيسًا صغيرًا.

بحثت بين طيات عمامتي. كيس قماش ناصع البياض. فتحته. يحوي عشرة دنانير ذهبية.

- ذهب حقيقي؟

- هدية من أختي.

- يووووه. سيتحول الذهب إلى عقارب.

- سافل قليل الأدب.

- لا آمن لأختك حتى لو كانت تمتلك ساقين سمينتين وثديين هائلين وبطنًا مليئًا، فهي رغم جمالها مجرد عفريتة شريرة.

- إمممم. أقسم بالله لو سَمعَتْك هي لفعصتك بباطن قدم واحدة من قدميها.

- آه. أظن أنها تعد مقلبًا مثل المرة السابقة. بعد فترة يتحول الذهب لصفيح صدئ.

- لا. أقسمت لك بجدي المقدس شتاريشا. على حصانك اتجه غربًا ستصل بعد يوم وليلة إلى مدينة مملكة البرقوق الذهبي. وتبات خارج أبواب المدينة. فاهم؟ لا تدخل المدينة هذه الليلة، وفي الصباح الباكر تكون أول من يدخل تلك المدينة.

- ولماذا كل هذا؟

- غدا صباح الجمعة الأولى، أول صباح في شهر مايو. والجمعة الأولى من شهر مايو، هو يوم ميلاد ابنة الملك برقوق الثامن. الملك برقوق الثامن ملك مملكة البرقوق الذهبي، جعل هذا اليوم عيدًا للمملكة، وجعل صباح هذا اليوم، هو صباح السعد لأول غريب يدخل من باب المدينة الرئيسي، يهب له الذهب والفضة ويكرمه آخر كرم. وفي هذا العام من يدخل المدينة في هذا الصباح سيزوجه من ابنته الوحيدة، ويجعله وليًّا لعهده.

ستسأل: لماذا يريد زوجًا لبنته من الغرباء، ويكون ولي عهده من الغرباء؟ أشرح أنا لك.. لأن في مملكته عائلات قوية، كل منها يريد تزويج أحد شبابهم من الأميرة ليكون وليًّا للعهد، وتنال عائلته عرش الملك. تلك العائلات كادت أن تدخل معارك بالسلاح ضد بعضها، لذلك قرر الملك برقوق الثامن أن يزوج ابنته من غريب، حتى يطفئ نار الفتنة التي اشتعلت بين عائلات المملكة. إذن يا سمكة. أنا شوشو العفريت المراهق، وأختي الصغيرة العفريتة شاشا، نعطيك الفرصة لتبدأ حياة مرفهة، وتكون أميرًا آخر نغنغة، وبعد وفاة الملك برقوق الثامن، تكون أنت الملك برقوق التاسع. ملك مملكة البرقوق الذهبي! ثم أمر آخر سيهمك كما هو يهمني.. هاها. كل النساء في تلك المملكة جميلات ذهبيات مرمريات، فيما عدا واحدة فقط مليحة، أو بمعنى أوضح قبيحة. يعني يا سمكة يا زفر ستتمتع بأحلى نساء المعمورة يا ابن المحظوظة.. هاها. هيا اهبط من ظهر حصانك وأحنِ رأسك واشكرني لأودعك.

نزلت من ظهر حصاني مضطرًّا. فأنا لا أصدقه. أنا أتزوج ابنة ملك وأكون أميرًا، وبعد سنوات أكون ملكًا! هههه. عفريت هجّاص كذّاب. رفعت كفي ودعوت عليه في سري. شوشو العفريت المراهق أحنى رأسه وقرأ شفتيَّ فثار وهددني:

ـ عرفت ما تقوله. أنت تدعو بالموت على أختي شاشا! يا بَشري يا حقير.

جسد العفريت المراهق يتضخم ويتحول من مماثل لحجم البشر، إلى حجمه الحقيقي. يتضخم ويتضخم في سرعة، حتى يصير أكبر مما كان بثلاثة أضعاف. الحصان عاد للتبول اللاإرادي والصهيل المرعوب.

«وقعتك نيلة ونهايتك مقندلة يا سمكة».

هكذا قلت لنفسي وأنا أرى شوشو يرفع ساقه اليمني ليسحقني. انهرت أرضًا باكيًا متوقعا أني سأموت موتة فظيعة. لكن العفريت يوقف اندفاع ساقه وقد قاربَت أن تسحقني وأخذ يضحك:

- بَشري جبان. قم.. قم قامت قيامتك. هل تجرؤ على الدعاء على أختي حبيبتي مرة أخرى؟

- لا.

- إمممم.

- قلت لا.

- إذن اركب حصانك واذهب حيث قلت لك، لتكون أميرًا ثم ملكًا. أو ارفض نصيحتي يا فقري يا ابن الفقري واذهب في أي داهية. إمممم.

مملكة البرقوق الذهبي

وزواجي من الأميرة برقوقة

والطمع خصلة أساسية في الإنسان. فبعد أن اختفى العفريت شوشو. وجهت حصاني أولًا لاتجاه الشرق، عكس الاتجاه الذي حدده العفريت المراهق شوشو، عليه وعلى أخته شاشا اللعنة. لكن بعد مشوار طويل، نفسي الأمارة بالسوء قالت لي:

«ربما كان شوشو يقصد الخير لي. وربما أن أخته شاشا الملعونة قد ندمت على أذيتها لي. إذن.. ما قاله شوشو على يوم السعد عند ملك مملكة البرقوق الذهبي، ربما كان صحيحًا، فلماذا أترك هذه الفرصة. فرصة أن أكون أميرًا وولي عهد الملك برقوق الثامن؟».

وجَّهت حصاني غربًا في نفس الاتجاه الذي شرحه لي العفريت المراهق شوشو. النهار فات. واسترحت أنا والحصان، ثم من بداية الليل واصلنا المسيرة الأميرية الملكية؛ لو صحَّت نصيحة شوشو وشاشا. الليلة التالية تهيأت للحضور ومعها برودة لا تجزع، بل هي برودة محببة، على الأقل تعفيني من العرق الغزير الذي غمرني في مشواري الطويل هذا، خاصة فترة تواجد شوشو المراهق.

بعد فترة قصيرة. دخلتُ مزارع عريضة بها الكثير من أشجار الفاكهة، خاصة أشجار البرقوق. إذن لقد اقتربت من المدينة المرجوة. وفعلًا وصلت لسور المدينة. دُرت حوله وعبرت أمام بابين عاديين.

أكيد ليسا منهما الباب الرئيسي. وجدت الباب الضخم العريض الذي يلاصق قلعة متوسطة ذات برج طويل. ربطت الحصان ونمت بجواره. وقبل أول ضوء من النهار، كنت على صهوة حصاني وأقف ملاصقًا للباب الضخم. بمجرد أن فتح الباب غمزت الحصان فدخل بي سريعًا عابرًا الباب داخلًا المدينة. الحراس ينظرون لي في تعجب. وإذا بجندي عليه القيمة، واضح أنه ذو حيثية، يتقدم مني على صهوة حصانه. يشير لي بالاقتراب. سار أمامي ووقف تحت شجرة ظليلة. قال لي سأسألك بعض الأسئلة، وعليك أن تجيب في صراحة، وإلا.. وإلا سيتم تجريسك وتفقيعك. أفهمت يا أنت؟ قلت نعم، وأنا لم أفهم معنى كلمة تفقيعك. سألني فأجبت ببعض الحقائق وأخفيت ما لا يقال. فلم أحكِ له عن عفاريت وخلافه. قلت له اسمي. وإني وُلِدْتُ يتيم الأم، وكنت صيادًا فقيرًا وابن صياد فقير مشهور بالمأفون. ثم اصطادت شبكتي جرة بها ذهب. صرت غنيًّا وافتقرت بخداع الناس. كنت متزوجًا بمن لم أحبها فكرهتني كما كرهتها، فطلقتها فزغردت فرحًا بانعتاقها عني. ولي طفلان أشتاق إليهما. الجندي ذو الحيثية تركني أسير وحدي واختفى.

حصاني يسير بي في مساحة متسعة على جانبيها أشجار البرقوق خاصة وفواكه أخرى. لا أحد. لا رجل ولا امرأة ولا حتى طفل! فقط نهر وعلى جانبيه أشجار باسقة. دلفت في شارع عريض قصير انفتح بي على ساحة واسعة. وإذا بجماهير على الجانبين تهتف باسمي! سمكة الصياد. سمكة الصياد. يا بخيت يا مُبْخَتْ. يا أبو حظ سعيد. سمكة الصياد. سمكة الصياد. هتافات لي وأنا في دهشة. يلوحون لي، خاصة البنات الشابات والناضجات. فعلا.. كلهن حلوات مرمريات ذهبيات، كما قال العفريت شوشو.

أتى بضعة جنود شاهرين سيوفهم فركبني الخوف. هل سيقطعون رأسي أم سيطعنونني في صدري وبطني، أم كيف سيقتلونني بعد كل هذا الاستقبال التهريجي؟ أمسك جندي منهم بلجام حصاني وسار يوجهني حيث ينبغي. إنه الجندي ذو الحيثية الذي قابلني عندما عبرت بوابة المدينة. اقتربنا.. منصة خشبية مكسوة بأقمشة زاهية. على جانب منها ضاربو الطبول، وعلى الجانب الآخر حاملو الرايات واللافتات المرحبة بي! الجنود تنحوا وتركوني أتقدم وحدي.. على المنصة كرسي عريض يجلس عليه رجل يرتدي ملابس حريرية زاهية. وعلى جانبيه يقف عدد من الرجال في ملابس تقل زهوًا عن الجالس. اقتربت.. يا ويلتي! الجالس على الكرسي على رأسه عمامة حمراء عالية واسعة، مثبت في مقدمتها ياقوتة حمراء كبيرة. إنها ياقوتة المُلْك! إنه الملك برقوق الثامن بدون شك، وقد كان.

هبطت من على ظهر حصاني. أشار لي الجندي ذو الحيثية بأن أصعد درجات السلم لأواجه الملك وحاشيته.. صعدت. وقف الملك وفتح ذراعيه بطول امتدادهما واحتضنني باسمًا. ثم لاحظت أنه جزع من رائحتي، ثم تمالك نفسه، فهللت الجموع بما فيهم الحاشية. الكل فرح بي. يا ربي.. نصيحة شوشو وشاشا كانت نصيحة حق! وأنا لعنتهما في سري كثيرًا! جلس الملك وأشار لي بأن أقترب منه. سألني عن اسمي رغم أنه عرفه، فقلت له. سألني: متزوج؟ فقلت: وطلقتها. هل لك أبناء؟ فقلت: ولدان صغيران. ضحك سعيدًا! قال: ولدان ذكران؟ قلت: نعم ذكران. قام وقال للجميع: أشعر بأن هذا الشاب هو الذي سيستقر معها. ثم أشار للحاشية بأن تتحرك صائحًا:

- هيا.

موكب ملكي فخم مبهر يعبر على الخيول المطهمة شوارع المدينة. يتصدره بالطبع الملك برقوق الثامن وأنا على يمينه، وعلى يساره وزيره ذو الوجه الهادئ، وغيرهما على الجانبين وخلفنا الجنود. الكل في ملابس فاخرة فيما عداي، فأنا الجربان الذي فيهم، رغم أن الكل يحتفي بي بما فيهم الملك! جماهير المملكة تهتف للملك برقوق الثامن وولي عهده سمكة الصياد! آه لو قام أبي المأفون من قبره ليرى هذا الموكب الذي ابنه فيه أمير! آه لو قام من قبره بعد عدد من السنين، وشاهد ابنه وهو ملك اسمه برقوق التاسع ملك مملكة البرقوق الذهبي! يا خرابي. من صياد سمك جربوع لأمير ثم ملك! لا. لا. أنا في حلم أم في علم؟ علم بعون الله. شكرا يا رب. وكمان يا رب ارضَ عن العفريتين شوشو وأخته شاشا، واحفظهما وجازهما خيرًا بما فعلاه لي.

سور له باب قوي مذهب تم فتحه والحراس على الجانبين. حديقة خضراء واسعة بها الكثير من أشجار الفاكهة، خاصة أشجار البرقوق، قصور متوسطة الحجم أنيقة متناثرة حول قصر بالغ العلو والاتساع والفخامة. ولما اقتربنا أشار الملك يمينًا، فوجهوا حصاني حيث أشار الملك. على يميني الوزير هادئ المعالم وعلى يساري الجندي ذو الحيثية وخلفنا عدد من الجنود. وعند باب بيت بالغ الأناقة والذوق توقفنا. حارس ساعدني على الهبوط من على ظهر حصاني. قال الوزير الهادئ:

ـ ادخل يا ولي العهد. فهذا قُصَيْرك.

قلت متعجبًا:

ـ قُصَيْرك!

ـ تصغير قصر يا سمو الأمير. وفي الداخل العبيد والجَوَاري تحت أمرك.

فقلت للوزير:

ـ وحصاني يا وزير؟

ضحك الوزير ساخرًا:

ـ أتقلق على حصان هلكان عدمان وأنت أمير وولي العهد؟ على كل حال. سندخله حظيرة الخيول فلا تقلق عليه.

دخلت القُصَيْر المخصص لي. لن أحكي. لن أحكي عن الأبهة والفخفخة. أنا معذور، فلم أشاهد قصورًا ملوكية حتى الآن. عدد من العبيد السود ملابسهم متواضعة بهم لمحة أنثوية، حفاة ورءوسهم مكشوفة، أي لا يضعون عليها عمائم. يكفي شعرهم الغزير المجعد. والجواري حولي في ملابس حشمة متواضعة، ينحنون لي مبدين الرضوخ. عرفت بعد ذلك أن كل العبيد الذكور مخصيون. العيب الوحيد في هذا المبنى القُصَيْر الجميل، أن كل الجواري ضخمات بما لا يتخيله أحد، أرشَق واحدة فيهن في وزن جاموسة! الفرق بينهن وبين الجواميس، أن الجواميس سوداء والجواري بيضاوات. غريبة.. النساء الحُرات جميلات وجها وجسدًا، والجواري جاموسات غليظات! قلت في نفسي: «معلهش. يومان ثلاثة وسآمر باستبدال الجواري الجواميس بجوارٍ غزلان. ألست أنا الأمير؟!».

عبد أسود جسده ممتلئ ويرتدي ملابس أنيقة يغلب عليها اللون الأحمر، وبخلاف كل العبيد، هو يضع في قدميه مركوبًا أحمر، ويرتدي عمامة حمراء! يسير بجواري بألاطَة وتَكَبُّر وعنطزة، إن لم يكن أسود، لقلت إنه أمير خطير. تشمم الهواء ناحيتي ثم تأفف، ثم قال لي:

ـ أيها الأمير. ستأخذ حمامًا ساخنًا.

نظرت له وأنا أُشَخِّصُ حال الفخامة والعظمة:

ـ فعلًا. يجب أن آخذ حمامًا ساخنًا. فأنا الأمير. لكن.. لكن من أنت؟

شمخ برأسه وقال:

ـ أنا أسعد.

ـ أسعد! أسعد من؟

نظر إليَّ مدهوشًا من عدم معرفتي به. قال:

ـ أسعد. أنا أسعد. أنا المخصص لمراعاتك. أوصتني أميرتي برقوقة بتلبية كل طلباتك.

ـ برقوقة!

ـ لا تقل برقوقة هكذا حاف، بل قل الأميرة برقوقة. إنها الأميرة برقوقة بنت مولانا الملك برقوق الثامن ملك مملكة البرقوق الذهبي. الأميرة برقوقة التي ستتزوجها الأسبوع القادم.

بان عليّ الاندهاش رغم محاولتي أن أكون جامد التعبير:

ـ آه. نعم. الأسبوع القادم. صحيح.

ثم حاولت أن أستعلي عليه، لأنه موجود هنا لتنفيذ رغباتي. قلت له:

ـ ثم.. ثم أنت.. ما اسمك يا أنت؟

أجاب متأففًا:

ـ قلت لك اسمي أسعد.

ـ أسعد. أسعد. أسعد معناها أنك أسعد من سعيد؟ هاها. أتظن يا أسعد؟

ـ ماذا؟

ـ أتظن يا أسعد أنك أسعد مني؟

ـ طبعًا.

ـ طبعًا!

ـ طبعًا.

ـ كيف طبعًا وأنا الأمير وولي العهد، وأنت مجرد شخص أتوا بك لمراعاتي؟

ـ أنت لا تعلم مكانتي عند الأميرة برقوقة بنت الملك برقوق الثامن.

ـ وما هي مكانتك يا أسعد؟

ـ أنا عبدها الخصي الخاص المخصوص.

ـ هاها.

ـ تضحك ساخرًا مني!

ـ طبعًا. عني، أنت عبد، ومخصي، وتتعاظم على الأمير وولي العهد يا أسعد يا عبد يا مخصي؟

ـ تقول هذا لأنك لا تعلم. وحين تعلم ستعلم أن أسعد، أسعد منك كثيرًا.

ـ ومتى سأعلم يا أسعد؟

ـ قبل موعدك بساعة. ساعتين. كده يعني.

ـ تقول ألغازًا!

ـ المهم الآن. هيّا إلى الحمَّام. فرائحتك فظيعة من العرق. يبدو أنك لم تستحم من... من...

شعرت بالحرج. فعلًا رائحتي ليست طيبة. لم أستحم من يوم ما تركت قصري هاربًا. لكن لم أستجب لأمر هذا الخصي. سألته:

ـ لماذا جميع الجواري هنا سمينات؟

ـ قَدَر الله. تعترض؟

ـ لا. لا طبعًا.

ـ إذن، هيّا إلى الحمَّام.

بيني وبين نفسي لعنته.. أذلّك الله أكثر من الذل الذي أنتَ فيه يا عبد يا مخصي.

سار على يميني لكن أمامي بخطوتين. وعليّ أنا أن أتبعه! ممرات ضيقة، ثم الدخول إلى الحمام. حمام تمام التمام، كله من الرخام الملون حتى جدرانه. حوض مرمر به مياه تكاد تغلي والبخار يتصاعد. الجواري عددهن سبع. لا ثماني. لا.. المهم عددهن كبير وكلهن لخدمتي! والأهم أنهن عابسات، أفواههن مغلقة. أسعد أمرني أن أخلع ملابسي. خجلت. فابتسم ساخرًا. أشار بيده. جاريتان نزعتا عني ملابسي. أمرني أسعد بالنزول في الحوض ذي المياه المغلية، رفضت خائفًا. فأمر أسعد جاريتين بالنزول في الحوض.. نزلتا. المياه ساخنة لكنها ليست مغلية كما ظننت. خرجت الجاريتان ونزلت أنا فيه. الجاريتان ملابسهما التصقت بجسديهما، فتكادان تكونان عاريتين! لكن هذه الحال لم توحِ لي بأي إيحاء جنسي.

فضخامة أجساد الجواري طردت أي لمحة أنوثة فيهن. الجاريتان تجلسان على حافة الحوض، وتدعكان جسدي بليف ناعم. الليف ناعم صحيح، لكن أياديهن عفية خشنة، ولما ظهر على سطح المياه رغاوٍ تبين كم كان جسدي متسخًا. تأفف أسعد الذي يقف على جانب مراقبًا، فاغتظت أكثر منه. صعدت من الحوض لأنزل في حوض ثانٍ للتشطيف. الحوض مفضض وحوافه مذهبة. ثم خرجت من الحوض الثاني وأنا في غاية الإنعاش. جارية ليست بضخامة زميلاتها. تقدمت بمنشفة كبيرة لتجفف جسدي العاري. فابتسمت لها ففيها أنوثة أفتقدها. الجارية محرجة من نظراتي، لكن فمها انفرج عن أسنان بيضاء قوية. جارية جاموسية تضع عليَّ ملابسي وأنا نظراتي تلاحق الجارية خفيفة السمنة، التي كادت أن تبتسم لي. فجأة أسعد يصفق بيديه، تنظر له الجواري. وجهه غاضب وأشار بيده لمن أعجبتني. الجارية المقصودة تهرول خارجة وقد أرعبتها نظرات أسعد! نظرت أنا لأسعد متعجبًا. فوضع كفه اليسرى على بطنه وكفه اليمنى فوقها، ورفع ذقنه في أنفه ونظر لأعلى ليبين لي أن أمره سينفذ حتى لو اعترضت أنا! عجيبة! هل أنا الأمير؟ وهل أنا ولي العهد؟ أم هذا الأسعد المخصي؟ بعد الحمام نعبر أروقة البيت الواسع متجهين حيث جناحي الخاص. أسعد يسير على يميني وأمامي صامتًا متأففًا. كم يكرهني هذا الخصي! وأنا أيضًا كرهته. لاحظت أن مؤخرته ثمينة بارزة. لو كان أنثى لكانت مؤخرته مغرية. سألته بصوت مرتفع عن ملابسي التي خلعتها في الحمام، فقال لي في قرف:

- أمرنا بحرقها. فهي ملابس لا تليق بقصور وبيوت الملك برقوق الثامن والأميرة برقوقة بنت الملك برقوق الثامن.

غرفة نومي واسعة فاخرة. منضدة صغيرة أنيقة عليها أطباق طعام

طازج أكثره لحوم. وفاكهة خاصة، وبالطبع البرقوق الذهبي. وأيضًا قوارير خمر وكئوس. أكلت أكل المفجوع المحروم وتناولت كأسين. سريري لين.. نمت قرير العين من تأثير التعب وتخمة الطعام والخمر الراقية. أتى عليّ الصباح وأنا مُنَعْنش تمامًا. جهزَت الجواري إفطاري ثم أتينني بقهوتي. دخل عليَّ أسعد. لم يُلقِ عليَّ أي تحية. قال إن مولاي الملك برقوق الثامن يطلبني. وضعوا عليَّ ملابس صوفية ناعمة، وعمامة حريرية حمراء وثبتوا في واجهتها ياقوتة حمراء صغيرة.. إنها علامة الإمارة وولاية العهد. طيبوني بأطيب الروائح، وأتوا لي بحصان وساعدني عبدان على امتطائه. وإذا بالجندي ذي الحيثية يقترب على حصانه ويلقي عليَّ الصباح. ابتسمت له. قال لي اسمه عبد القادر، قائد قوات الدفاع عن المدينة. إذن هو فعلا ذو حيثية. أسعد يقف على باب القُصَير، لوّح لي بيسراه في كبرياء. لم أرد تلويحه، بل أشرت بأصبعي على الياقوتة الحمراء التي تتصدر عمامتي؛ أي أنا الأمير وليّ العهد يا عبد يا خصي. أنا الأمير وعلى يساري قائد قوات الدفاع عن المدينة، لا عبد خصي مثلك. هذا حتى يعلم مكانه الوضيع، ويعلم مكانتي الرفيعة. وبمثل هذه الحركات التي أنوي أن أفعلها معه، سأُعلمه الأدب.

مَررنا على الحديقة الواسعة، يفوح منها نسائم أشجار الفل والياسمين الرائعة. نسائم ثمرات الفواكه خاصة البرقوق تحاول منافسة نسائم الفل والياسمين. وصلنا القصر الكبير، ترجلنا ودخلنا معًا. وصلنا بالقرب من البهو الكبير، فتنحى القائد عبد القادر ليأتي الوزير الهادئ بنفسه ويحييني ويصافحني ويكون على يساري، وأنا أدخل في البهو الملكي المذهب المفضض، المترع بالمقاعد الوثيرة والسجاجيد الشيرازية الملونة. الوزير يحترمني كل هذا الاحترام،

والعبد الخصي يستكبر عليّ! سأشكوه وأطلب إبداله بخصي متواضع قليلًا.

كرسي العرش في الواجهة، والملك برقوق الثامن يجلس في فخفخة وعلى رأسه عمامته الحمراء العالية الواسعة. وفي مقدمتها جوهرة المُلْك. ابتسم وأشار لي أن أقترب. سجدت أمامه كما أوصاني الوزير، وحييته متمنيًا له صحة وعافية وطول العمر. ثم جلست على وسادة على يمين الملك. تشمم الملك ناحيتي وبانت الراحة على تقاسيم وجهه، وجد رائحتي طيبة.

أنظر حولي: كبار رجال الحاشية وكبار العائلات المتينة، كل منهم يُحييني في نفاق واضح. الملك شكر فيَّ وقال إنه متفائل بتواجدي وبكوني زوج ابنته وولي عهده.

مناقشات في أمور المملكة. وجانب من النقاش حول محصول البرقوق والمكاسب التي زادت عن أي عام سابق. الملك ابتسم ونظر لي وقال إنه متفائل بوصول ولي عهده الأمير بحر بن المفضال. حَدَثَتْ في قلبي رجّة. هل بهذه السرعة خلعني الملك من ولاية عهده، وأتى بهذا البحر بن المفضال؟ لكن الملك ينظر لي والحاشية تنظر لي وتبتسم، ثم أخذوا يهنئون الملك بالأمير ولي العهد، الذي هو أنا! الوزير الهادئ أتى بجواري وأشار لي أن أقف. وقفت فهمس لي رُد تحية الملك والحاشية يا أمير. فانحنيت ناحية الملك ثم ناحية الحاشية. اقترب مني الوزير الهادئ أكثر وهمس لي:

- اسمك من الآن بحر بن المفضال. وجدنا أن اسم سمكة الصياد، اسم عِرّة وأقرب إلى الزفارة، قلنا نهبك اسمًا به ملوكية.

ابتسمت رغم سخرية الوزير مني. استمر الملك والحاشية في

المناقشات، وأنا في حيرة لماذا يسخرون مني وأنا الأمير وولي العهد! صحيح أن الاحترامات من الحاشية والوزير واضحة، لكن من تحت لتحت أحس بسخرية تضايقني.

وقف الملك فوقف الجميع وأنا بالطبع. قال الملك للوزير:

ـ اطلب من قائد قوات المدينة، أن يصاحب الأمير بحر بن المفضال، ليريه معالم مدينتنا البرقوقية.

وقد كان. على حصانينا سِرنا أولًا بجوار سور المدينة. وأراني أبوابها الخمسة المفتوحة دومًا طوال النهار وتغلق ليلًا. الباب الذي دخلت منه اسمه الباب الملوكي. والباب القريب منه هو باب برقوقة. اسمه على اسم الأميرة برقوقة بنت الملك برقوق الثامن. وعلى بُعدٍ باب ضيق لكنه عالٍ، هو باب المشانق.. يا حفيظ يا رب. شرح لي القائد عبد القادر.. أنه هنا يتم شنق من يغضب عليه الملك، أو تغضب عليه الأميرة. قال تغضب عليه الأميرة ونظرته لي فيها ما فيها، ولم أعلم ما فيها وقتها. ندور على حصانينا بجوار السور الذي هو عن يميننا ومباني المدينة عن يسارنا. الباب الرابع باب الفسحة. وهو الباب الذي يدخل منه النهر ويخترق المدينة. الحراس حيوني وحيوا القائد عبد القادر ونحن نخرج من البوابة. مناظر جميلة. لذلك قيل عن هذا الباب باب الفسحة. النهر وعلى جانبيه جناين رائعة وأشجار فاكهة يانعة، وبالطبع أكثرها أشجار البرقوق. قال لي عبد القادر مبتسما:

ـ هنا يأتي الكثير من العشاق.

فقلت له بمزاح صديق لصديق:

ـ وهل أنت منهم؟

ضحك عبد القادر ولم يُجب. قطعنا مسافة طويلة. على الجانب

الآخر من السور باب وحيد، هو الباب الخامس، يمر من تحته النهر خارجًا لفضاء مفتوح غير مزروع. عدنا معًا لقلب المدينة. السوق العامر وزحام الناس والمساجد والخمّارات... إلخ. ثم عاد بي إلى قُصَيْري. العبيد استقبلوني وأمسكوا بحصاني لأهبط. استأذن مني القائد عبد القادر فسمحت له بالذهاب. دخلت القصر. عبد خصي آخر سار عن يساري يدلني على ممرات القصير، فأنا لم أعرف بعد ممراته وغيرها. سألت مُرافقي عن أسعد. فقال إن الأميرة برقوقة بنت الملك برقوق الثامن أرسلت إليه، وسيعود قبل سدول الليل. قلت في نفسي: «عله لا يعود خصي الكلب».

وصلت لجناحي فانسحب الخصي وأتت جاريتان جاموسيتان وخلعتا عني ثيابي. وبوعاء به ماء رطب أزالتا مني العرق. ووضعتا ثيابا رقيقة. ثم الغذاء ثم نوم الظهيرة. بقية أيام الأسبوع مثل هذا. فُسح مع القائد عبد القادر، وطعام ونوم. ولم يكن يضايقني ويقرفني سوى أسعد العبد الخصي. يقرفني الخصي في عيشتي الحالية، والتي من المفترض أن تكون عيشة هنية.

يوم الزفاف. زينات في القصور وفي الميدان الرئيسي. وفي قاعة المُلك تم الزفاف بحضور مأذون العائلة الملكية. كنت في ملابس فخمة والعطر يفوح مني كما يفوح من الحاشية كلها. فرقة عزف وعدد من الراقصات ومن المطربين. طعام فاخر وفاكهة طازجة وخمر رقيقة. ثم على حصاني وزفة من الموسيقيين والراقصين والمطربين والجنود حولي، حتى وصلت لقصر الأميرة برقوقة بنت الملك برقوق الثامن. أنا منتشٍ بالطعام والخمر، وأتحرق شوقًا لليلة ساخنة مع الأميرة، قضيت أيامًا طويلة بدون أن أقترب من أنثى. أصوات الموسيقى والزغاريد عالية.

دخلت القصر. قبل كل شيء. رائحة الطعام تفوح. استقبلني المدعوون من سيدات وفتيات العائلات الكبيرة الغنية، بالتهاني والهتاف باسم الأميرة واسمي الملوكي.. البحر بن مفضال. الفتيات والسيدات جمالهن فائق. ابتسمت متشوقًا للقاء الأميرة. إن كانت سيدات وفتيات المملكة بكل هذا الجمال، إذن الأميرة هي أجملهن وأحلاهن وستكون أغنجهن بالطبع. يا لروعة الهناء بعد الكثير من البلاء! قاعة مترعة بالمأكولات والمشروبات، السيدات والفتيات يتفحصنني بدقة. لمحت نظرات شفقة من بعضهن! أغاني ورقصات وضحكات. ثم أتت جارية سمينة في سمنة جاموسة، وهي تسوق أمامها خمس فتيات، أكبرهن تقارب الثانية عشرة من عمرها، والأربع الأخريات تقريبًا من عشر سنوات لحوالي ثلاث. مَن هؤلاء؟ لم أعرف. لكن الكبيرة قالت لي يا عمي! وصافحنني مبتسمات ابتسامات شقية ساخرة! يبدو أن هذه المملكة تعشق النظرات الساخرة المختلطة بنظرات الشفقة! وبدأ المدعوون في الانصراف. ولم يبق غير العبيد والجواري. الجاريات هنا أيضًا أوزانهن جواميسي. لا أعرف لماذا. حتى الآن لم أر العروس. قيل لي إنها سبقتني لحجرتنا. جاريتان تأخذاني لقرب غرفة الزفاف. غرفة الأميرة العروس. الغريب.. أن رائحة الطعام في كل مكان. ليس الطعام الجاهز، لا. رائحة الطبخ. وكأن القصر أصلًا مطبخ أضيف عليه الحجرات وغيرها. الجاريتان توقفتا ليقترب مني من؟ العبد الخصي أسعد! الضيق وضح على وجهي، فابتسم الخصي سعيدًا بضيقي. وقال لي:

- مولاي الأمير بحر بن المفضال. سأرشدك إلى غرفة أميرتي برقوقة بنت الملك برقوق الثامن.

سار أمامي في خيلاء. أنا أنظر لمؤخرته الرجراجة وأبتسم ساخرًا، آه لو كنتَ امرأة يا أسعد يا خصي الكلب. واضح أن الخمر لعبت في رأسي قليلًا. وأمام باب أحمر توقف الخصي وأشار لي بأن أدخل. دفعت الباب برفق فانفتح في رقّة. نظرت للخصي وقلت له في تَرَفع:

- ابتعد أنت يا خصي.

ابتسم الخصي وابتعد ولم يبد عليه أنه انفعل بترفعي عليه! دخلت أنا للحجرة. حجرة العُرس حيث ليلة العناق الساخنة. حجرة واسعة، رياشها حرير ودِمَقس، وسجاجيدها حريرية والسرير عريض. ورائحة البخور والعطور تفوح فوحًا، وأيضًا رائحة أبخرة لحوم مشوية ومقليّة ومُحَمّرة. أين العروس؟ سمعت ضحكة خفيفة. نظرت فإذا بها تقف بجوار نافذة مفتوحة، يأتي منها نسيم عليل. لا، ليست هي. لا، ليست هي الأميرة بالتأكيد. حكيت عن الجواري الجواميس. الجواري الجواميس يُعتبرن جواري غزلانًا بجوار هذه. إنها جاموستان ثلاث اندمجن معًا. ابتسمت. هذه جارية لتخدم الأميرة. صح، إنها جارية رغم ملبسها الغالي. قلت لها:

- أين أميرتك يا جارية؟

ضحكت ضحكة رقيعة أفزعتني. اقتربت مني بخطوات سريعة ووقفت تنظر لي. وجهها كان يمكن أن يكون جميلًا، لولا أن الشفتين مبرطشتين وبهما تشوهات، وأيضًا السِّنتان الأماميتان العلويتان مفقودتان. لكن جسدها لا يمكن. لا يمكن. لا يمكن أن يكون جميلًا. استحالة محالة. الخوف العميق اتضح على سحنتي. قالت لي:

- يا أميري. أنا زوجتك. أنا الأميرة برقوقة بنت الملك برقوق الثامن.. هاها.

أنا في ذهول. وأول ما خطر في بالي، أن ألعن العفريت شوشو وأخته العفريتة شاشا. يااااه. إنه مقلب قاسٍ منهما. إنه مقلب أقسى من مقلب تحويل ذهبي إلى حديد خردة. يا لقسوة العفاريت! الأميرة ضحكت وقالت لي:

ـ ما بك يا زوجي الغالي؟ ألم تكن تتوقع جمال عروسك؟

ـ !!

ـ ما رأيك. نأكل أولًا أم... أم نحتضن بعضنا أولًا؟ هاها.

ـ !!

التفتتْ وأخذتْ خطوات سريعة وهي تتدلل. تتجه ناحية منضدة عليها طبق شاسع متخم بأنواع اللحوم الساخنة والأبخرة تتصاعد منها، طبق ثانٍ عليه هرم من فواكه منوعة، وثالث عليه أنواع من البسبوسة والفالوذج بمختلف الألوان والأحجام. لم ألتفت لكل هذا. منظر الأميرة من خلفها وهي تسير مسرعة تتدلل مؤخرتها مجموعة مؤخرات ترتج متخبطة في بعضها. منظر يرعب أشجع الرجال. رحمتك بي يا رب. التفتتْ ونظرت لي نظرة فرحة وهي تشير لطبق الفاكهة:

ـ نتناول خمس أو ست أو عشر حبّات من الفاكهة؟ أم نتناول اللحوم؟ لحوم بقر وجاموس وماعز. وطيور.. دجاج وحمام وبط وإوز، وأيضًا لحوم نعام وطـاووس. آآآآه. الفالوذج والبسبوسة أووووه. ما رأيك؟ قل ما ترغب فيه يا حبيبي يا زوجي. سأقدمه لك بيدي.. هاها.

ثم أتت لي في خطواتها المدللة. أحس بوقع قدميها على الأرض

من ثقل وزنها. أما ابتسامتها، فيا رب يا حفيظ. أنا في حالة ذهول. لم أكن أتخيل أن في الوجود امرأة بهذا الحجم. وقفتْ أمامي. هي في طولي، لكن عرضها أيضًا طويل! وإن حاولنا أن نقيس محيط بطنها المتهدل، لمؤخرتها المتردية، لكانت المسافة لا تقل عن طولها من أعلى رأسها لأخمص قدميها. ربي.. ماذا سأفعل في مجموعة الجواميس هذه؟ لا، ما ستفعل مجموعة الجواميس هذه بي؟

ضحكتْ من وضوح الصدمة التي اعترتني. قالت في دلالها الخاص:

ـ تعالَ.

أمسكتني من ساعدي وسحبتني خلفها حتى أجلستني على السرير. ولما جلستْ بجانبي، أنّ السرير. مالت عليَّ وصار وجهها أمام وجهي وشفتاها تكادان تلاصقان شفتيَّ. أنفاسها طبيخ. قالت:

ـ حبيبي.

ولم أُجب. كما أنني لم أحس بأي شيء. أُغمي عليّ.

ولما أفقت بعدها. لم أفق تمام الإفاقة. صداع في عموم رأسي. وغلوشة في عيني، وسقف الحجرة يتمايل كمركب يتلاعب به الموج. وطرطشة في أذني، فالأصوات التي تصلني همهمة وتمتمة، في مجملها هلوسة. انتبهت أنني ملقى أرضًا على ظهري. استجمعت قواي واعتدلت جالسًا. بدأ نظري يستقر. أنا في حجرة عُرسي. حجرة الأميرة برقوقة بنت الملك برقوق الثامن عليها اللعنة. الجاموسة البيضاء المفترية. المصابيح تضيء الحجرة تمامًا. عمامتي ملقاة بجواري وفي مقدمتها ياقوتة الإمارة. لكن ما هذه الهمهمة والتمتمة؟ على يميني سرير. المفترض أنه السرير الذي يجمعني مع عروسي الضخمة. الهمهمة والتمتمة تصدران من أعلى هذا السرير. ورأسي

على مستوى أعلى السرير. نظرت. رأيت، ويا هول ما رأيت: الأميرة برقوقة والعبد الخصي أسعد عاريان! نعم عاريان. صحيح عاريان. أي والله عاريان. أسعد العبد الأسود الخصي. ينام بين فخذَي الأميرة برقوقة، ونصفه العلوي فوق نصفها العلوي. ووجهه على وجهها وشفتاه تمتصان شفتيها المشوهتين! يا ابن القحبة. كيف صعدت على هذا المرتقى الذي هو لي أنا؟ وفي الليلة التي هي لي أنا؟ صحيح أنني فجعت من منظر برقوقة المفزع، وجزعت من جسدها الذي أُضْغِمَ ثلاث جواميس في جسدٍ بشري واحد. لكنها حتى وهي كذلك. حتى وهي هضاب من اللحم، فهي زوجتي أنا يا ابن العاهرة. أنظر إليهما جيدًا. أسعد خصي، فكيف. كيف يستطيع فعل أفاعيل الذكور الكاملين؟ اكتشفت الأمر، إنه يستخدم كف يمناه بما فيها من أصابع، بديلًا عما ينقصه. صِحت:

ـ خيااااانة.

زوجتي تتشنج وتهمهم وتهلوس هلوسة ذروة النكاح. بساعديها الضخمين تقبض على وسط العبد وتضغطه عليها وهو يئن متوجعًا. لذا صيحتي لم تأت مفعولًا مؤثرًا. وثبتُ واقفًا. ظهر العبد الخصي واضحًا لي. تعجبت. مؤخرة العبد ذات شقين طوليين. شق طبيعي خلقه الله يفرق بين فلقتَي المؤخرة، وشق صناعي لا يقل عمقًا عن الأول! لم أهتم لا بالشقين ولا بالأنين. بكلتا يديَّ انهلت ضربًا على ظهر العبد. ففزع هو من المفاجأة لكنه مزنوق بين ساعدَي زوجتي الرهيبين المتشنجين. لا يستطيع أن يفلفص منها. زوجتي لم تترك العبد إلا بعد دقيقتين استكملت فيهما حاجتها. وهنا تحرر العبد منها واعتدل وهو يسبني. أما هي فقد أخذها الغضب مني، وكأني أنا قد أتيت أمرًا إدًّا وليس هي. وكأنني مَن خُنت وليست هي. مبللة بالعرق،

هَبَطَتْ زوجتي من السرير بصعوبة. جسدها يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف. وقفت أمامي ولم تسبني كما توقعت، صفعتني صفعة لبؤة شرسة كادت تفقدني وعيي مرة ثانية. لكني صمدت صمود الرجال. ولما حاولت أن أتكلم مبينًا غضبي وصدمتي مما شاهدته، إذا بالصفعة الثانية تأتيني. تمالكت نفسي، عليَّ أن أترك نفسي يُغشى عليها بعد الصفعة الثالثة. لم أتلقَّ الثالثة. صاحت:

ـ يا جارية.. يا جارية.

انفتح باب حجرة النوم. ودخلت جاريتان من الوزن الثقيل. أشارت لهما عليَّ. قالت:

ـ أبعدوا هذا التعس وضعوه في حجرة النوم الثانية.

تقدمت الجاريتان وأمسكتاني من يميني ويساري وسحباني في قسوة لخارج الحجرة. ليس لي قدرة على مقاومة تلك الجاموستين البيضاوين. عمامتي ملقاة. صِحت:

ـ عمامتي. عمامة الإمارة يا جواميس.

لم يهتم أحد بصيحتي. سُحبت لخارج حجرة نومي وأنا مذهول. أنا الزوج الشرعي يتم طردي من حجرة عُرسي، وتتركان زوجتي مع عشيقها الخصي! هذا حدث، وضحكة أسعد الخصي تُجلجل في الحجرة. طبعًا يضحك بافتعال لإغاظتي وإهانتي. وأنا في الطرقة المؤدية إلى الحجرة الثانية التي قررت زوجتي حبسي فيها. ضحكات العبد الخصي بالفعل تكويني غيظًا وتطعنني إهانة. وتم حبسي في حجرة متوسطة لا تحوي فخامة حجرة نومي الأساسية. بقيت مستلقيًا فيها حتى الصباح. لم يأتوني لا بطعام ولا بشراب. بقيت محاولًا أن أستوعب ما جرى لي في حوالي عشرة أيام. من يوم أن تحول ذهبي

لحديد صدئ، وهروبي وإعلان حماتي نفيسة الخبيثة أني شقيق حبيبتي حسنة، ثم تطليقي لحسنية التي زغردت لطلاقها، ثم فراقي لطفلي حسونة وحسنين. ثم مقابلتي للعفريت شوشو وأخته العفريتة شاشا، انتقم منهما الله القادر المنتقم. ثم أسبوع هنا في مدينة البرقوق. كيف تحولت فورًا من سمكة الصياد إلى الأمير البحر بن المفضال ولي العهد! ثم ليلة دخلتي على الأميرة التي كنت أظنها برقوقة، فاكتشفت أنها جاموسة أضخم من كل جواميس الدنيا. والآن تستغني عني زوجتي في ليلة دخلتنا، وتفضل عليَّ عبدًا أسود مخصيًّا. آآآه يا غرائبكِ يا دنيا. توغل الليل فنمت. بدون أن أشعر نمت، ولم أفق إلا على فتح باب حجرتي ودخول من؟ دخول الملك برقوق الثامن ذات نفسه! خلفه الوزير الهادئ. اعتدلت أنا وبكيت بدموع غزيرة، وهممت بالشكوى مما فعلَته بي ابنته في ليلة دخلتي عليها، وكيف أنها خانتني ومع من؟ مع... وقبل أن أبكي وأشحْتِف، إذا بالملك يصيح فيَّ:

- كيف تُهين يا غبي ابنتي الأميرة برقوقة بنت الملك برقوق الثامن؟ كيف تهينها وتبكيها في ليلة عرسها؟ كيف يا قاسي تنهال ضربا على ظهر المسكين أسعد؟

ولما حاولت أن أدافع عن نفسي، استمر الملك في بهدلتي:

- هل نسيت أنك مجرد صياد زفر حقير؟ هل ظننت أنك أمير بحق وحقيق؟ هل نسيت رائحتك النتنة حين أتيت لنا؟ اسمع.. مثلما جعلتك أميرا ووليًّا لعهدي. بإمكاني بإشارة مني أن يجرجروك على الأرض ثم يعلقوك مشنوقًا في باب المشانق. خسئت يا ابن الخاسئين.

ولم يتوقف الملك عن سبابي حتى تقدم من خلفه للأمام الوزير الهادئ. وقال للملك في رقة:

- مولاي. عد للحبيبة ابنتك. الأميرة المسكينة في حالة غضب وذهول مما فعله بها زوجها هذا الغبي. واتركني أنا أشرح لهذا الصياد الزفر المطلوب منه.

خرج الملك وتقدم مني الوزير الهادئ. دفعني في صدري فسقطت جالسًا على السرير. جلس قبالتي وأخذ يشرح لي عجائب الدور الذي يجب عليَّ فعلها بعد فهمها. قال:

- ستعود لزوجتك وتعتذر لها وتستسمحها لترضى عنك، وإلا ضربتك زوجتك الأميرة كل ليلة علقة فتصاب بالعاهات الممدودة في مجرد أيام معدودة. واعلم أن المطلوب منك يجب أن تفعله. مولانا الملك ينتظر منك أن تجعل ابنته الحبيبة برقوقة حاملًا وتلد ذكرًا، هذا هو دورك الأساسي. واعلم إن لم تحبل زوجتك في مدى ثلاثين يوما، أي شهر واحد لا غير، فسيتم شنقك. وإن حملت وأنجبت بنتًا، فسيتم شنقك أيضًا. مولانا الملك برقوق الثامن يريد حفيدًا ذكرًا. أفهمت يا سمكة يا زفر؟ فلا تتفاخر ولا تتعاجب في مملكتنا، فأنت على شفا الشنق، وقد سبقك لحبل المشنقة خمسة أزواج. أدعو الله أن تُنجب من زوجتك الأميرة طفلًا ذكرًا يكون فألًا حسنًا لك وينقذك من الشنق، فيتم تثبيتك أميرًا ووليا للعهد. وتعيش منغنغًا منعمًا مكرمًا أكثر من الملك نفسه.. فهل فهمت؟

بقيت مذهولًا فاغر الفم. ضحك الوزير من سوء حالي وغُلبي. قال:

ـ اطمئن. فأنا سأساعدك كثيرًا. قل لي ما تريد مني أن أعينك عليه. قل ولا تتحرج. صحيح أنا الوزير وأنت الحقير، لكن لا بأس. قل.

بلعت ريقي وقلت:

ـ هل أنا في حلم أم في علم؟

ـ أنت في علم. ويجب أن تتجاوب فيما أنت فيه حتى تنقذ نفسك.

ـ نعم. نعم. أأحادثك بصراحة يا وزير؟

ـ بكل صراحة.

ـ كيف لي أن أنكح الأميرة وهي في وزن ثلاث جواميس؟

ـ هاها. يا لك من صريح لدرجة قلة الأدب. لكن اسمع.. أنا عندي امرأة عجوز تفهم في مثل هذه الأمور. وقد ساعدت أحد الأزواج السابقين للأميرة. ستعطيك عشبًا تَسِفّه بجرعتَي ماء، وعشبًا تحرقه وتشمّه. ثم تدخل على الجاموسة.. آآآ.. أقصد العروسة. ستفعل فيها الأفاعيل حتى لو كانت تشبه الخنازير.. هاها.. هذا كلام بيني وبينك فقط.. هاها.

ـ إذن حللنا مشكلة عويصة. لكن الأعوص.. كيف لي أن أضمن أن يكون المولود ذكرًا؟

ـ هذا لا ينفع فيه عشب ولا يجدي فيه طب. عليك أن تُحبل الأميرة وتترك ما تنجبه منك لما يقدره الله. عندك سؤال آخر؟

ـ ثلاثة.. أولها: لماذا كل الجواري حول الأميرة ضخمات جاموسات؟

ـ سؤال غبي من صياد سمك غبي. وماذا تتوقع من أميرة في وزن ثلاث جاموسات؟ هذا على حد قولك. هي أمرت بأن كل الجواري اللاتي يخدمنها أو يخدمن بجوارها، أن يكن من الوزن الثقيل. والثقيل جدًّا.

ـ ثانيها: ما سبب تشوه شفتَي الأميرة وسقوط السِّنتين الأماميتين؟

ـ زوجها السابق. سَكر سُكرًا بيّنًا. ولعنها ولعن أباها، وكانت حاملًا، أسقطها أرضًا وركلها بقدمه في وجهها، فمزق شفتيها وكسر سِنتيها. وفوق هذا وذاك أسقطت حملها وكان ذكرًا. وهنا قرر الملك ياقوت الثامن، أن يتم قتل هذا الزوج بمقتلة لا يتصورها إنسي.

ـ كيف؟

ـ عرّوه تمامًا وطرحوه أرضًا. وأتوا بحصانين قويين. وربطوا قدم الزوج اليمنى في حصان واليسرى في حصان. ثم أمروا الحصانين بالسير البطيء، كلّ في اتجاه. فتم فشخ الزوج فشخًا بطيئًا مؤلما ألمًا فظيعًا.

ـ يا الله يا رحيم. يا رب أنقذني من المهالك.

ـ السؤال الثالث: عندما شاهدت العبد الخصي فوق زوجتي. وشاهدت مؤخرته، وجدتها غريبة.

ضحك الوزير لمدة ثم توقف عن الضحك بصعوبة وشرح لي:

ـ الزوج رقم اثنين. كان في وضع يشبه وضعك، وكان هذا الزوج الثاني، أشد الناس كرهًا لأسعد العبد الخصي.. عاد لحجرته في وقت متأخر وهو في حالة سُكر لينسى تخن زوجته وشكه

في علاقتها بالعبد أسعد. دخل حجرته فوجد العبد الخصي أسعد فوق زوجته، ينكحها بطريقته، فأرغى وأزبد وأشهر سيفه. لكن الأميرة أمسكت به، حتى هرب أسعد من الحجرة عاريًا. الزوج رقم اثنين أبعد يدَي زوجته من وسطه وأسرع يطارد العبد الخصي في طرقات القُصَيْر. لم يستطع الإمساك به، لكن في المطاردة كان الزوج الغاضب قد قارب ظهر العبد. فضربه بالسيف من أعلى لأسفل. حد السيف لم يلحق بظهر العبد، لحق بمؤخرته فقط. فأحدث شقًّا طوليًّا عميقًا في مؤخرته، يجاور الشق الطبيعي ولا يقل عنه عمقًا.. هاها.

ـ هاها.. هاها.

ضحكت ضحكًا عميقًا لا يقل عن الشق الذي في مؤخرة أسعد العبد الخصي الأسود. يااه. شعرت بشماتة عميقة. الوزير ضحك أكثر لضحكي وشماتتي. ثم توقف عن الضحك وقال:

ـ تعود الآن وتُقبل يد الملك ثم يد الأميرة. وتعدهما بأنك ستنفذ كل ما يريدانه.

فعلت ما قال. وفي المغرب سففت العشب وتجرعت جرعات ماء، ثم أحرقت العشب الثاني وشممت دخانه. ثم دخلت على عروستي الجاموسة. ففعلت فيها كل ما تريد وكل ما أريد وأنا تحت سطوة العشبين الساحرين. وتوالت الليالي. ليلة أسِف العشب وأشم العشب وأرتمي على جسد زوجتي الجاموسية. وأربع ليالٍ أستريح فيها. ثم علمت أن في الأربع ليالٍ التي أستريح فيها، ليلتين يكون العبد المخصي الأسود أسعد، يحتل مكاني! لم أغضب ولم ألُمْ ولم أشتكِ، لكن أسخر من أسعد. أسأله كلما قابلته عن الشق الثاني

الذي في مؤخرته. كان يغتاظ، وكلما اغتاظ هو ضحكت أنا وفرحت. اشتكى لزوجتي الأميرة الجاموسة، فطيبت خاطره ولم تلمني إلا على الماشي. فأنا صرت أُمتعها تمامًا وقد أحبلتها. أسعد الخصي جعلته أتعس الخصي من كثرة سخرياتي منه خاصة أمام بقية العبيد والجواري. فكثيرًا ما كنت أطلب منه أن يعري مؤخرته ويعرض الشق الثاني أمامي وأمام المتواجدين من عبيد وجوارٍ. العبيد والجواري سعداء بسخريتي من أسعد، فهو متكبر عليهم ويهينهم كثيرًا. صار أسعد يتجنبني. وبهذا تصبرت حتى يأتي يوم يحدث فيه، إما التَّدَلّي من حبل المشنقة، وإما التَّعَلّي على عرش المملكة.

كل ليلة وصال مع زوجتي، وبعدما أُنهكها نكاحًا وأُنهك نفسي تمامًا. أفعل مثلما أفعل، أغادر السرير وأذهب للحجرة الثانية. هذا حتى أهرب من شخير زوجتي، وشخيرها يرج الحائط وهز السقف هزًا. ارتميت على السرير. نمت وصرت أشخر شخيرًا بسيطًا. يد حانية تهزني. كنت أحلم بحبيبتي حسنة. اليد لم تكن حانية، بل أنا الذي أشعر بها حانية. أفقت. صرخت فوضع كف يده أمام فمي وأسكتني. إنه العفريت المراهق شوشو!

ـ ما الذي أتى بك هنا؟ ألا تخشى من الحراس؟

ـ حراس؟ هاها. أنسيت أنني عفريت يا سمكة يا حقير؟

ـ يخرب بيتك وبيت أختك.

ـ هاها. صياد حقير وقليل الأدب. اسمع...

ـ سمعت الرعد في أذنيك. لقد قلت لي إن نساء مملكة البرقوق الذهبي، كلهن جميلات مرمريات ذهبيات. لكن أنا زوجتي قبيحة قبحًا أزليًا.

ـ أنا قلت لك كلهن جميلات مرمريات ذهبيات فيما عدا واحدة.

ـ والواحدة هذه تكون من نصيبي أنا؟

ـ ألم تتأكد بعد أنك فقري؟

ـ فقري! والآن.. ماذا تريد مني؟

ـ ألست أنا وأختي شاشا مَن جعلناك في هذه الفخفخة والبخبخة؟

ـ بخبخة! ما تعني ببخبخة؟

ـ هذه كلمة عفريتية ليس لك دخل بها. اسمع...

اعتدلت..

ـ نعم.

ـ أنت غبي.

ـ أتينا للغلط.

ـ نائم تحلم وأنت سعيد! ألا تفكر أنك ربما تتدلى من حبل المشنقة؟

ـ ممكن إن أنجبت زوجتي الجاموسة بنتا. حقيقي ممكن. لكن.. ماذا أفعل؟

ـ ترتب نفسك للهرب إن أنجبت زوجتك الجاموسة بنتا.

ـ كيف؟

ـ تستغل القائد عبد القادر، فهو يميل لك. تعطيه وعدًا بأنك ستجعله قائد الجيش. ثم تأخذه معك وتُعوده على الخروج معك من مدينة البرقوق للفسحة كل يوم، يومين. وكل مرة تخرجان فيها، تبتعدان. هذا حتى يتعود الحرس على ذلك. وفي يوم إنجاب زوجتك، هُبْ.. تخرج للفسحة، ولا تعود.

ـ ربما ستنجب طفلًا ذكرًا. فأنا أنجبت من قبل ذكرين.

ـ إن كان ذكرًا بقيت، وإن كان أنثى تهرب.

ـ فكرة عفريتية يا شوشو.

ـ اسمع...

ـ ماذا أيضًا؟

ـ زوجتي.. هاها.

ـ آه. زوجتك.. هاها. عدنا لكلام المراهقين.

ـ زوجتي شاشا بنت حبيبتي القديمة شرشورة. أنجبت توأمًا.. ولدًا وبنتًا.. هاها.

ـ مبروك. اتركني أنام.

ـ ثم إني أفكر في زوجة ثانية. أنثى واحدة لا تكفيني.

ـ ستبقى مراهقًا حتى الموت يا شوشو.

ـ هاها.. صح. أنا مراهق من عمر المراهقة حتى عمر الشيخوخة. هاها.. اسمع.. ستفعل ما قلته لك؟

ـ طبعًا. فقط اتركني لأنام.

الملك رضي عني كثيرًا، خاصة بعدما بان الحَبَل على ابنته. يطلبني كثيرًا لحضور جلساته مع كبار العائلات وقيادات الجيش. طبعًا في باله ربما تنجب ابنته طفلًا مني، فسأكون وليًّا للعهد ثم الملك من بعده. إذن، عليه أن يعطيني فرصة تعلم أمور المملكة. الوزير الهادئ يحضر الجلسات ويشارك في المشاورات، لكنه لم

ولن يكون صديقي، فهو ثعبان خبيث، رغم وجهه الهادئ البارد. الذي صار صديقي الوحيد هو القائد عبد القادر.

مع القائد عبد القادر. نخرج على حصانينا من باب الفسحة. ونتوغل في المزارع والمراعي. والقائد سعيد بأنه يصادق الذي ربما سيكون الملك القادم. وبهذا أجعله قائد الجيش كله! نعم. لقد وعدته بذلك. وللعلم. أنا لم أستغنِ عن حصاني القديم، هو الذي أذهب عليه لكل مكان. هذا الحصان عِشرة طويلة، وقد تعوَّد على العفريت شوشو، فإن قابلنا العفريت شوشو أنا وهو في المستقبل، أكيد ستكون أعصابه أهدأ من حصان لم يقابل عفريتًا من قبل.

أتت الليلة الموعودة. زوجتي تصرخ وتصرخ فقد حان أن تلفظ مَن في رحمها. أنا خارج القصر وحصاني بجانبي بحجة أن أعصابي متعبة. فعلًا أعصابي تعبانة هلكانة عدمانة، فالموت على بعد لحظات. ربما يجرجروني أرضًا لحيث باب المشانق. ثم يعلقوني مشنوقًا. استر يا رب. سمعت صراخًا وجلبة وبكاءً. وصوتًا عاليًا متوترًا لعبد يصيح:

- أين الزوج؟ أين الزوج؟ ائتوا به حالًا فالملك برقوق الثامن يريده فورًا.

أنا أسرعت على حصاني في اتجاه باب الفسحة. الظلام لا يكسر بعضه سوى بعض المصابيح المنيرة. بالقرب من باب الفسحة جعلت حصاني يسير الهوينا. الحراس فتحوا لي الباب مُحيين. خرجت وأنا أرد لهم التحية مبتسمًا. وأغلقوا الباب خلفي. أسير الهوينا حتى ابتعدت عن الباب بما يكفي. ثم هاااا. جعلت حصاني يسرع بأقصى سرعة ممكنة. طوال الليل الحصان يجري بأسرع ما يمكن. يجب أن

أهرب بعيدًا، فخيالي الذي يصور لي نفسي مشنوقًا، خيال يرعبني ويرجفني. الحصان يسرع ويسرع حتى أُنهك تمامًا. توقف الحصان رغمًا عن أنفي. فهبطت منه ليستريح. سحبته لجدول مياه ليشرب، وأنا تناولت طعامًا قليلًا، وقطفت ثمرتين من البرقوق ثم شربت من نفس الجدول، لأوفر قِربة المياه، فسأحتاجها عندما أخرج من منطقة المملكة للصحراء القفر.

أفقت على مشارف الفجر، وأصوات خيول تقترب. يا لهول ما أسمع. إنها تجريدة جنود تطاردني للقبض عليّ. امتطيت حصاني وأسرعت هاربًا. النهار أقبل ومنتصفه حل. أشرفت على أطراف زراعات المملكة. تركت حصاني يشرب وأعطيته مأكله ثم أكلت أكلًا خفيفًا وشربت من آخر جدول. ثم انطلقنا في الصحراء. يوم آخر تعب. في الليل نمت بجوار الحصان. فإذا بما كنت أتوقعه يحدث. أتاني العفريت شوشو ضاحكًا. استيقظت في ضيق، فكلما تفتحت لي الدنيا بالرفاهية، يحدث ما يشقلب لي الأمور فتعود وتغلق وتصير طينًا وزفتًا. شوشو يضحك كالعادة! عفريت سخيف ولا أسخف منه غير أخته شاشا. جلست، والحصان بعد أن صهل خوفًا، تعرف على العفريت شوشو فهدأ. جلس العفريت بجواري. أنا لا أصل حتى منتصفه. ساقاه الطويلتان ممتدتان، وجذعه عالٍ بحيث لا أرى رقبته ولا بالطبع رأسه. صوته يصل لي يسأل عن هروبي. لم أجبه. ولما عاود السؤال قلت إنني سمعت الجلبة والصياح عندما أنجبت زوجتي الأميرة الجاموسة ما أنجبت. وعرفت من الصراخ والجلبة والبكاء، أن الجاموسة أنجبت طفلة. وتأكدت من هذا عندما صاح صائح متوتر: «أين الزوج؟ أين الزوج؟ ائتوا به حالًا فالملك برقوق الثامن يريده فورًا». العفريت شوشو أخذ في الضحك. غضبت وقلت له:

ـ ما حدث لي مقلب من مقالبك أنت وأختك. حرام عليكما. أنتم معشر العفاريت أقسى وأشر من بني البشر.

لم يتوقف شوشو عن الضحك. ثم تضاءل وصار في حجم بشر وقال لي:

ـ يا سمكة يا فقير يا حقير. زوجتك الجاموسة أنجبت طفلًا ذكرًا.

أنا قفزت واقفًا غير مصدق. قلت له:

ـ ماذا تقول؟ وكيف عرفت؟ أنت كاذب. الجاموسة أنجبت أنثى جاموسة مثلها. يا كاذب يا شرير يا أشر من أختك شاشا. تريدني أن أعود لكي أُشنق.

لم يتوقف شوشو عن الضحك. ثم قال:

ـ أقسم لك برقبة جدي المقدس شتاريشا، إن زوجتك أنجبت طفلًا ذكرًا. وإن الصيحات والجلبة كانتا بسبب الفرحة بوصول الحفيد المرجو، وطلب الملك لك؛ لأجل يكافئك يا فقري.

ـ لكن التجريدة، الفرسان الذين كانوا يتعقبونني؟

ـ أرسلهم الملك لإعادتك يا غبي.

أنا في ذهول. ثم قلت:

ـ إذن، أعود لأكون وليا للعهد ثم الملك.

ـ لا.

ـ لا!

ـ أمس ليلًا حدث انقلاب على الملك. العائلات القوية غضبهم اشتعل على الملك. قرروا ألا يسمحوا لغريب أن يتربع على

عرش مملكتهم الذهبية. أزاحوا الملك وحبسوه وحبسوا ابنته الأميرة زوجتك الجاموسة برقوقة بنت الملك برقوق الثامن عشر. وهم الآن في مباحثات ليختاروا شابًّا من أقوى عائلة ليتزوج فتاة من العائلة التي تليها في القوة، وأول ذكر ينجبانه يتزوج من العائلة الثالثة في القوة والثراء.. وهكذا. أي راحت عليك يا فقري. أنا وأختي شاشا أعطيناك الفرصة لتكون ملكًا، وأنت بغبائك وطبعك الفقري، أضعت الفرصة. إذن، استمر في الهرب. وآخر نصيحة أقولها لك اتجه شمالًا، بعد ثلاثة أيام في الصحراء ستصل لجبل البهاليل، وهم مجموعة قُطاع طرق يهجمون على قوافل الصحراء، ويتعيشون من السلب والنهب. وهناك.. إما أن تبقى فترة وتذهب لمكان آخر، وإما أن تبقى حتى تموت.

ـ ليكن ما يكون، لكن لا تأتِ لي مرة ثالثة، لا أريد أن أراك ولا أريد أن أسمع سيرة أختك شاشا لعنها الـ...

ـ إمممم!

ـ انتهينا. سلامو عليكو.

وأسرعت على حصاني في اتجاه الصحراء، وأنا أشك أن العفريت ابن العفريتة سيتركني في حالي ولا يأتي لي مرة ثالثة.

انتقام الأبله و حكاية سمكة الصياد

"سومو في جميع الرقصات، رقصه لا يتناغم مع إيقاع الطبول. ولا غناؤه يتناغم مع أغاني المغنين. يرقص كما يحلو له ويغني بصوته الأجش العميق كما يشاء.. سومو أبدى إعجابه بالجميلة تيماتي كثيرًا، وكثيرًا ما كانت تصدّه تيماتي، وكانت تعامله بترفع.. فكيف وهي أجمل فتيات جيلها، تقبل تودد هذا الأبله الذي هو مسخرة القرية كلها؟!".

من "انتقام الأبله"

"- الطلاسم على جدران القمقم من الداخل والخارج، تبقيني في نفس العمر حتى أخرج. يا حفيظ من سيدنا سليمان وغضبه. قل لي.. ما أخبار أتباع سيدنا سليمان عليه السلام؟

-سيدنا سليمان! مات من زمان.

-أعرف هذا. أسألك عن أتباعه الذين مازالوا يقبضون علينا ويسجنوننا؟".

من "حكاية سمكة الصياد والعفريت المراهق"

يقدم حجاج أدول في روايتَي "انتقام الأبله" و"حكاية سمكة الصياد والعفريت المراهق"؛ عالمًا غرائبيًّا بمفرداته الثقافية والحضارية، بدءًا من تصوير الطقوس الاحتفالية والأطر الاجتماعية التي تحكم مجتمعًا قبليًّا، مرورًا بشخصياته التي يتنازعها الخير والشر، الشهوة والفضيلة، النور والعتمة، لتتجلى في النهاية الصراعات الإنسانية في كل زمان ومكان.

حجاج أدّول: قاصٌّ وروائي مصري، من مواليد الإسكندرية عام ١٩٤٤. تميز بكتابته عن الثقافة النوبية. كتب الدراما المسرحية أوّلًا، ثم القصة القصيرة، والرواية؛ حيث صدرت له عدة روايات ومجموعات قصصية ومسرحيات. حصل على جائزة الدولة التشجيعية عن مجموعته "ليالي المسك العتيقة" عام ١٩٩٠، وعلى جائزة ساويرس الثقافية عن روايته "معتوق الخير" في دورتها الأولى عام ٢٠٠٥.

9 789770 934463

دار الشروق
www.shorouk.com